

مؤامرة الصمت

زهير البيومي

مؤامرة الصّمت

زهير البيّومي

- ١ -

دقّ شمسيته في مكان منعزل من الشاطئ الممتد بطول منطقة الشاطبي ومن فوقه الكازينو المسمى باسمه. وجلس يرنو إلى البعيد.. ربما إلى الشاطىء المقابل الذي لا يمكن رؤيته.. لكنه كان ينظر كأنه يراه، كان يبتسم.. لمن البسمة يا ترى؟ للموج المتلاطم كشأن الناس في الحياة.. أم للأفق البعيد الذي لا يراه. اليس عجيبا أن يبتسم الإنسان للمجهول؟ ربما كان لسبب آخر في نفسه لا ينعكس على محياه ولا حتى على صفحة المياه.

هلّت من بعيد فاتنة ترتدي البكيني وبدأت تدق شمسيتها إلى جواره فنهض بشهامة يساعدها في دق الشمسية. وردد في نفسه أن الإنسان حيوان اجتماعي وهي

مقولة لا زالت تصدق حتى لهذا العصر، وأن الإنسان لا يحب العزلة حتى ولو كانت في قصر. حين انتهى من مساعدتها شكرته بإيماءة من رأسها متكبرة، كأنه لم يفعل الا ما يجب، وتمددت على كرسي بلاج مريح وراحت تقرأ في رواية لكاتب عفا عليه الزمن ورغم ذلك لا يزال منتشرا كالوباء، فأسر لها في نفسه شيئا من البغضاء وندم على مساعدته لها وقال إن شفيعها الوحيد هو جمالها، ولكن ترى هل يكون مخبرها بنفس القدر من الجمال الذي يعكسه مظهرها.. العود الفارع وصدر الممثلة جين راسل وسيقان الراقصة التي طالما حلم بمعاشرتها ولم يجرؤ أبدًا على الجهر بهذه المشاعر في حضور زوجته الوقور.. وعجب لماذا اختار زوجته دون غيرها لكنه ردد في نفسه ربما هي الوحيدة التي رضيت بفقره ورقة حاله، وقال إن ذلك يكفي لأن يردد في نفسه دائما آيات الحمد رغم أنه ورد في الحديث «عليكم بالشهباء» قيل وما الشهباء يا رسول الله قال «الفارعة الطول الناصعة البياض».

رآها تتنقل بسرعة بين سطور الرواية التي تقرأها فقال إن كثرة الضجيج حول هذا الكاتب جمعت القراء حوله، وإن الصمت الذي حاصره أضر به، ولكنه يعتقد نفسه الكاتب الأصلح فهل تصدق مقولة «البقاء للأصلح».. راح يسجل

خـواطـره هـذه في أوراق معـه وفي النهـايـة دوّن عبـارة «حاصرني الصمت طوال حياتي» لم يرد اسمي سوى مرات قليلة في الصحف والمجلات ونادرا ما ذكره ناقد في برنامج إذاعي أو تلفزيوني، أقصى كلمة تشجيع سمعها من ناقد.. لا بأس.. استمر.. ولكن حاول مرة أخرى.. وتكررت المحاولات ولي ثقة بالنفس لا أعرف من أين أستمدها والا لألقيت بكل أوراقي في سلة المهملات، فإذا كنت قد عشت حياتي مدفونا بقاع الحياة الذي يغلفه الصمت من كل جانب فلا بأس أن أختار ميتة تحدث ضجيجا لم يحدث على امتداد حياتي القصيرة كما أريدها؛ وتساءل بسخرية واستهانـة ما فكر الفلاسفة ومـا يفكـرون والكتّـاب ومـا يسطـرون والشعراء وما يشطرون والملهمات وما يلهمن والنقاد وما ينقدون.. وما الحياة نفسها؟

وضع قلمه وأوراقه جانبا ووضع فوقها ملابسه ومن فوقها جميعا حجراً كبيراً. نهض بسرعة وتوجه برجاء إلى الفاتنة الجالسة إلى جواره أن تولي أشياءه اهتمامها حتى ينهي سباحته، فأومأت لـه بـالإيجاب دون التفـاتـة، فحقـد على اندماجها مع الكاتب الذي عفا عليه الزمن. وسار بضع خطوات في المياه حتى وصلت إلى منتصف صدره وبدأ السباحة والفتاة تتابعه من طرف خفي في إعجاب بضرباته

المنتظمة القوية التي تعكس خبرة سبّاح ودربة بطل مجهول الهوية. وقالت في نفسها انها ستحرص على التعرف عليه عند عودته. واصل السباحة حتى اجتاز البراميل والصخرة الكبيرة لكنها لم يساورها القلق رغم اختفائه عن ناظريها، وقالت إن فتوته وخبرته وانتظام ضرباته تجلب الطمأنينة، وكل ذلك كفيل بتشجيعها على السباحة إلى جواره إذا سنحت الفرصة، لكنها أبدا لم تنفذ إلى أفكاره التي كانت تصطرع في نفسه طيلة جلوسه إلى جوارها، ومضت الساعات دون أن يعود فبدأت الوساوس تساورها حتى أنها كلها فكرت في الانصراف إلى بيتها ألح عليها شيء غامض يشدها إلى البقاء على الشاطئ.

حدّثت أحد رجال الانقاذ بأن شابا لا تعرفه سألها أن تلقى بالا إلى ملابسه وأوراقه لكن الساعات مضت دون أن يعود.

قال لها: أهو من المعارف.. أو الأقارب؟

قالت: لا.

قال: إذا لا شأن لك به.. انصرفي بسلام.

قالت: ولكنه إنسان.

قال: كلنا بشر.

قالت: شيء من المسؤولية.

قال: تريدين أن تجلبي لنفسك ولنا وجع الدماغ.

قالت: كيف؟

قال: سترين.. هيا تعالي لنبلّغ شرطة الشاطئ.

واصطحبها إلى نقطة شرطة الشاطىء. ودوت الصفارات وخرج جميع من في البحر ولم يعد الشاب الذي مضى منذ الصباح.

وقلَّب رجال الشرطة في أوراقه وفي جيوب ملابسه وعثروا على بطاقته وبها عنوانه. واستدعيت زوجته فجاءت والهلع على محياها باد. وسألوها هل لها أولاد فقالت اثنان تركتهما عند احدى الجارات.. وسألوها أسئلة كثيرة وقال الضابط بعد أن قلّب في أوراقه ولاحظ طابع الاكتئاب فيما كتب من خواطر:

ـ هل تعتقدين أنه انتحر؟

قالت: لا أدري.. ربما.

قال: ما الذي يجعلك تقولين ربما؟

قالت: هو كاتب روائي مغمور.. وكان حزينا لتجاهل

النقاد والصحف وأجهزة الاعلام له وغلبت عليه الكآبة في السنوات الأخيرة.

قال الضابط: قالت الشاهدة إن زوجك كان يجيد السباحة وإنه لا يمكن أن يغرق.

قالت الزوجة باكية: وهل هناك من هو أقوى من البحر.. يا خوفي من بعدك يا حسن.. أريد استخراج اعلام وراثة حتى أستطيع أن أصرف معاشه.

قال: ليست هناك جثة طافية ولا بد أن ننتظر حتى تظهر الجثة أو تمضي أربع سنوات بعدها يمكنك استخراج اعلام وراثة وصرف معاشه ومستحقاته حيثما وجدت.

قالت: أربع سنوات بلا مورد رزق.. هذا كثير.. هذا فوق الطاقة.. عذاب في حياته وعذاب بعد موته.

أقفل المحضر.. واستطاع بعض صحفي الحوادث أن يشتموا من تصريحات النيابة رائحة شيء يلهثون وراءه، فهرعوا إلى بيت المؤلف المغمور ولكن زوجته كانت تتكلم بالقطارة، وحث رؤساء التحرير المحررين على ملاحقتها وإغرائها بالعون المادي كي تتحدث ولم يجدوا في ذلك حرجا. فبعض كبار الكتاب يدلون بالأحاديث الصحفية بمقابل، فما بال هذه وهي أرملة تعول طفلين، وكان للمقابل

المادي فعل السحر. تحدثت أرملة الكاتب المغمور عن جوانب من حياته وسمحت بنشر فقرات مطولة من كتاباته لفتت انتباه النقاد وبدأت الصفحات الأدبية توليه من الاهتمام ما لم يحظ به طيلة حياته، وعجبت الزوجة أن تهتم الصحف بجمع معلومات عنه وعن عدد مؤلفاته.. وعن زوجته وثقافتها وعملها وولديها وتعليمهما وأصل الكاتب وبلده ومجلس اصدقائه والتفاصيل الدقيقة لحياته اليومية في العمل وفي البيت وفي مجلس الأصدقاء، كانوا يسعون وراء التفاصيل بل وتفاصيل التفاصيل ويلحون عليها أن تكتب مذكراتها بمقابل، أغروها بالكتابة كي تواجه مطالب الحياة خاصة وأن معاشه لن يصرف قبل أربع سنوات وراتبها وحده لن يكفي نفقات تعليم ولديها، والأصدقاء لا تدري ماذا سيكون موقفهم بعد رحيل صديقهم. هل سيظل مجلس الأصدقاء حولها كما كان حولها قبل غرقه، وما موقف الجيران من ذلك وهي أرملة تعيش منذ الآن وحدها.. ما موقفهم من تردد أصدقاء زوجها على بيتهم. هم كانوا يترددون على البيت في حياته فماذا سيكون الحال بعد مماته، أعيتها التساؤلات فصرفت النظر عن كل ما حولها وانشغلت بتدوين مذكراتها التي أغراها المقابل المادي الكبير بكتابتها.

- ٢ -

الاسم : بثينة عبد الباسط .

المهنة : مهندسة .

تاريخ الميلاد : سر المرأة التي لا تبوح به حتى لزوجها .

الحالة الاجتماعية: حتى الآن زوجة وأعول ولدي من المؤلف المتوفي خاصة أنه ليس من حقي أن أستخرج له شهادة وفاة وبالتالي اعلام وراثة حتى تمضي أربع سنوات أو تظهر الجثة .

منذ عشر سنوات أغراني الأصدقاء والصديقات من جمعية الفن الحديث بالتردد معهم على بيت كاتب مغمور يدعى « حسن بركة » قالوا أن لكتاباته نكهة جديدة تتعرف

عليها من قراءة أول صفحة من أي عمل قصير أو طويل له. بعدها لن يمل الانسان مجلسه. وكنت في بداية حياتي «كمهندسة ولا زلت مغرمة بعالم الفنون الأدبية والتشكيلية، وصحبتهم وقالوا إن بيته في الابراهيمية قلت:

- هيا.. ولكنني لا أعرفه.

قالوا: بطاقة التعارف سهلة «صينية خضار باللحم» وهي وحدها كفيلة بمد جسور التعارف بينه وبين أي صديق أو صديقة، فهو لا يذوق الخضار ولا اللحم الا كلما جاد عليه صديق بزيارة كهذه حيث لا يسمح راتبه الضئيل بترف تناول طعام كهذا في بيته أو في مطعم، كما أن وقته كرسه للعمل والكتابة ومجالسة الأصدقاء.

أغراني كل شيء بالذهاب بصحبة صديقة وصديق وفعلت كما قيل لي. أخذت معي صينية كوسه باللحم المفروم.. اهتز لها طربا.. وراح يكيل لي المديح ويثني علي كطاهية أفوق كبار طهاة فنادق الخمسة نجوم حتى من قبل أن يذوق شيئا مما أحضرت.. فبدا لي في البداية أنه لا يعدو أن يكون نسخة باهتة من ممثل هزلي معروف. لكنه بعد أن فرغ من الطعام انقلب إنسانا جادا يحسن الاستماع إلى ما يقرأ من شعر أو قصة أو ما يدور من نقاش في

المجلس وتحسين القراءة إذا ما طلب إليه قراءة شيء من ابداعه. وذهنه حاضر متوقد دائما رغم أنه يشرب من الزجاجات التي يحضرها الأصدقاء وكأنه يشرب الماء.

سألته مرة لماذا لا يحاول نشر انتاجه والتردد على الندوات. قال بإيجاز: «حدث ونشر لي مرات قليلة ولكن سوء حظي أوقعني معظم الوقت في أشخاص مراوغين يأخذون الانتاج ولا يقرأون وهذه هي السمة المميزة لردودهم.. حاولت مرة ثانية مع أشخاص نرجسيين يبهتون لمواجهة انتاج له طعم جديد فيستأذنون متعللين بموعد ارتبطوا به مع مستشرق.. ولا أدري لماذا دائما مع مستشرق»... ويضحك الجميع ويعلق أحدهم ساخرا: «هم يستشرقون.. يتهربون منا متذرعين بعقدة الخواجة ونحن هنا ننظر لموقفهم باستغراب، هم نزعوا للاستشراق ونحن نزعنا إلى الاستغراب»، واستطرد حسن بركة قائلا: «حدث بضع مرات أن نشرت لي بعض المجلات بعضا من انتاجي بل وغامر ناشر بطبع كتاب لي ولكن الصمت قتله فلم تلقَ عليه أضواء الصحف والمجلات وترفعت أقلام النقاد عن تناوله بالتقييم وكأنه رجس من عمل الشيطان وكذلك لم يتردد له صدى على موجات الأثير. ونصحني الأصدقاء والناشر بعمل جولات في أروقة دور الصحف والمجلات ودهاليز

أجهزة الأعلام المرئية والمسموعة التي خصصت برنامجا للأدباء من الشباب يتعهدهم من المهد للحد، وظلت تسمية «شباب» لاصقة بهم كالتهمة التي لا فكاك منها والتي صارت مثارا للسخرية منهم وكأنهم كهول، في شبابهم الغض؟.

وفي النهاية ضحك عاليا وعب من الزجاجة وعلق قائلا: «وأما البرامج التي تثير الضجة وتسلط الأضواء على الكبار الهرمين وأتباعهم من الشباب حملة الحقائب المغرمين بالانحناء الذين أوشكت ظهورهم على الاحديداب من كثرة الانحناء فهي موصدة دونه». قال مازح من بين الجالسين: «لا بأس أن تصطحب عند ذهابك لمقابلة القائمين على هذه البرامج ضابط ايقاع وبذلة رقص مفتوحة والصاجات بين أصابعك، فان ذلك يحدث في لحظات من السحر ما لم يحدثه قلمك الذي احتضنته بين أصابعك طيلة عمرك المنصرم» وضج المكان بالضحك «وعاد الصمت من جديد يغلف حياتي وكتاباتي ولكن قلمي لم يجف بعد ولم ينضب ولن ينضب. انما لفتني ثلوج النسيان وحتى الناشر الوحيد الذي تحمس لي صرف النظر عني بعد الخسارة الفادحة التي مُنِيَ بها من جراء نشر كتابي اليتيم الذي خرج إلى النور ولم يجده، فلا أحد تكرم حتى بنشر خبر صدوره فكأنه ولد ميتا أو أنه

ولد لكي يموت. المهم أنه كان محكوماً عليه بالموت مسبقا رغم جودتـه، في الوقـت الذي تسلـط فيـه الأضـواء على تفاهات كثيرة تملأ كتبًا ومجلداتٍ ذلك أن أصحابها ممن يجيدون فن العلاقات العامة ويتمتعون بقدر عال مما يسمونه الذكاء الاجتماعي وأسميه أنا النفاق. يتبادلون الكتابة عن بعضهم البعض كما يتبادلون الأنخاب، فهم يتمتعون بسعة مـن المال تسمح لهم ببسط الموائد العامرة بالويسكي والكافيار واغداق الثنـاء على المأجـوريـن وذوي الذمـم الخربـة مـن أصحاب الأقلام فهم لا ينشرون لأحد قبل شراء صكوك الغفران، فمتى يتجدد شباب الثورة البروتستانتية؟

وكيف وأنا هنا جالس على البساط الأحمدي أنتظر زيارات الأصدقاء التي أسد بها رمقي في زمن لا يكفي فيه راتب الموظف خريج الجامعة لدفع إيجار الشقة واستهلاك النور والمياه، واذا فكّر في بقية تكاليف الحياة تراه وقد تـاه، فمن أين له بالمأكل والملبس والكتاب الذي بدونه تصبح الدنيا ضبابًا يحجب عنه رؤية الحاضر والمستقبل فيبقى أسيرا للماضي، فإذا كتب لا يكتب غير المراثي واذا غنى لا يصـدر عنـه سـوى مـوال طـويـل بطـول صبره على مـر السنوات.. موال حزين هو النغمة السائدة في أنشودة حياتنـا. هذه شهادتي للتاريخ.. «رفعت الأقلام وجفت الصحف»..

توقيع حسن بركة.. ماركة مسجلة ولكن غير متداولة في السوق.» وسكت بينما ضج المكان بضحك الجالسين فيه من حوله. كدت أشاركهم الضحك ولكن دمعة لمحتها في عينيه أجهضت الضحكة في حلقي. وعرفت أن حسن بركة يعاني وحدة شديدة وأزمة فن مكبوت رغم زحام الأصدقاء من حوله. هم يتسلون بمجالسته وهو يعاني الصمت الذي وصل إلى حد المؤامرة والتجاهل الذي يدمغ منكريه بالعمى. فهو يتمتع بعبقرية قليل من الضوء كفيل بأن يرفعها إلى عنان السماء. فقلمه لا يكتب بل صار يدمي وعيناه رغم وضوح الرؤية فيهما صارت بالدمع تهمي.

ولفت نظري في المكان رجل آخر هو «نوح الرسام» وهو الرسام الوحيد بين الجالسين وهو يسجل طيلة الوقت في صمت وجوه الجالسين عاكسا مشاعر اللحظة غضبًا أو عجبا أو أدبًا، ضحكا.. صمتا أو مزاحا.. حركة في المكان غدوا أو رواحا. وفي نهاية الجلسة يتخاطف الجالسون رسومه ويدسون في يده ما يجودون به عليه من سخاء يستحقه فهو فنان وان يكن فقيرا وهو بفنه وسطهم يجعل من رسومه ضميرا.

وقبل الانصراف ومع نسمات الفجر يغني المطرب

« سامح » مطرب المجلس الذي لا يجد خارجه من يسمع لغنائه، فيبث في جالسيه من خلال صوته ظلم الأيام وشجن الأحزان وحلم الإنسان حتى تسلمهم نشوة الأنغام لأنسام الفجر ومداعباتها لعيونهم الكليلة من طول السهر فيبدأ الجميع في الانصراف في صمت تباعا ويتكوم حسن ابركة في ركن بغرفته ينام فيه وكذلك يفعل نوح الرسام. وتمضي بهما الأيام تكفنهما بصمت يشبه ثلوج النسيان فلا أحد يشعر بهما خارج هذا المكان الذي يشبه دائرة العجز، يدورون في فلكها يلهثون وكأنهم وراء أفق ضاق من حول الإنسان فصار مشنقة منصوبة له بعد أن كان خيمة فضفاضة يمرح فيها منذ هبط أبوه آدم حتى اليوم حيث الدنيا نار.. الحر والغبار والزحام والأسعار، اختلاط القيم والمعايير وضيعة الأمال وفقد الهيبة للكبار وافتقاد العطف على الصغار، والعيون الغاضبة ينطلق منها الشرار.. شرارة واحدة كفيلة بأن تشعل النار ولكن وقودها غضب في الصدور لمّا يخرج بعد وحتى يشتعل ويجلب النور كي تضيء الحياة.. فمتى؟.. ويموت السؤال على شفاه النائمين قبل أن يكملوه.. ويغيب الإنسان عن الوعي وعن الوجود.. يتوه.

- ٣ -

وتتكـــرر مجالس الأدب والفـــن والأنس والأكـــل والشراب. ومع الأيام اكتشفت أن كل شيء في هذا البيت واضح بلا حجاب.. وأنك هناك تتحرك بحرية لا تملك أن تتحرك بمثلها في بيتك حيث التقاليد وعيون الجيران. أما في مجلس الأصدقاء، فلا أحد يسألك إلى أين أنت ذاهـب ولا لماذا تأخرت أو لماذا تستأذن مبكرا أو من ذلك الذي بصحبتـك. فقـط انـك اذا أردت أن تقـوم بـالتعـريـف بصديقك أو صديقتك عليك أن تترك العلاقة تعرّف نفسها بنفسها، أو تتركها لذكاء الجليس الذي غالبا ما يكون في شغل شاغل عنك لا يهتم من أنت ولا من بصحبتك. هناك يترك الكل جميع الأمور تسير في أعنتها، ينسون العمل والمشاكل وجميع شواغل الحياة وكأنما هناك قرار بإجماع

المجلس أو شعار « إذا أردت أن تستريح.. لا تسأل عن شيء ».

ذات يوم حضرت مبكرةً جدّا بعد الظهيرة. وهذا مبكر جدا فتلك ساعة استيقاظه قد استفاق تماما ولا زالت التكشيرة على وجهه، لكنها سرعان ما زالت حين رآني أحضرت معي لفافات كثيرة وقد وشت البقع الناضجة منها بما فيها وأغراه ذلك بحسن استقبالي. وفي هذا اليوم سألني بعد أن فرغ من طعامه « هل انتِ متزوجة؟ » قلت له « لا » علق قائلا: « أنت ست بيت ممتازة » قلت باعتداد: « أنا مهندسة ».

قال: أنا أتحدث عما يهمني.

قلت: ألا تهمك ثقافتي؟

- ثرثرة النساء عذبة بوجه عام.

- تماما كسفسطة الرجال.

قال مباغتا: تبدأين النقار حتى من قبل الزواج.

قلت في دهشة: ماذا؟

- ماذا.. حظك من السما.. موظف عنده شقة ايجارها

جنيهان وأثاث وفراش لا بأس به. وقرش مني على قرشين منك تسير الأمور.

ضحكت وقلت: أنت تمزح.

قال في جد: أنا لا أمزح الا في وقت المزاح.

- إذا فأنت جاد.

وأكثر من جاد.

فمضيت تلهبني سياط الوحدة واستخفني النزق وحب المغامرة فقلت له: لا مناص من مقابلة أمي.

قال في دعابة: أقابلها.. وهل أخاف أمك.. أقابل أمك وأبوك وجدك ايضاً.

قلت في مرح: فلنؤجل مقابلة أبي وجدي لوقت آخر.

قال في عجلة: ولماذ؟خير البر عاجله.

- أنت تطلب الموت.

- هل هو صعب إلى هذا الحد؟

قلت متمادية في العبث بأفكاره: الموت.

قال في بساطة: لا.. أبوك.

قلت وقد أمضني شعور بأنني تماديت معه: أبي ميت.

قال في عجلة: يرحمه الله.. أمك فيها البركة.

وكان لي وله ما شئنا. باركت أمي زواجنا وزفنا أصدقاؤنا أعضاء المجلس الثقافي الذي ضمنا في بيته سنوات طويلة.. بطول شاطىء الاسكندرية. وظل أصدقاؤنا ملتفين حولنا تنالنا بركاتهم في أوقات الزيارة. وهي لم تنقطع لمدة أسبوعين عرفت فيها الحب أصدق ما يكون في حسن بركة وعرفت فيه الفنان والإنسان الواعي بكل أسرار المكان والزمان بالقدر المتاح للبشر. فأحببته وأكبرته حتى صرت لا أخاطبه إلا في هدوء وخفر وكأنما تقمصتني روح جدتي. فما سلوت يوما عنه ولا خطر لي أن أسلوه أبدًا. ولا تصورت يوما غيابه.

ماتت أمي وتركت لنا شقة في «جليم» فرحنا بها وقلنا إنها ستساعدنا على التغيير كلما شعرنا بالضجر. ولما كان الضجر لا يعرف طريقه إلينا فنحن محاطون بالأصدقاء دائما لذلك أجرناها للطلبة في الشتاء، وفي الصيف للمصطافين، واستعنا بعائدها على مطالب الحياة التي كانت تزداد بمضي الأيام وبازدياد نفقات تعليم الطفلين وأعباء الحياة بوجه عام.. لكن لم يحدث أن توفر لنا أبدًا من المال ما يجعلنا نستريح من اللهاث وراء العمل أو ما يعفيني من الاستمرار

في العمل للتفرغ للأمومة ورعاية الأولاد ومتابعتها في الدراسة منزليا، لسنوات «حسن بركة» زوجي ثابت على رأيه لا يرى في نفسه إلا فنانا لا يصلح لشيء سوى الفن..

أما الوظيفة فقد أعفاه زملاؤه ممن يترددون على بيته من الحضور ويقومون هم عنه بأداء واجبات عمله ان وجدت. فالبطالة المقنعة صارت سافرة بعد أن صار ما يقوم به موظف واحد يؤديه خمسة وربما أكثر. أما أنا فكنت أستثمر خبرتي الهندسية في كل دقيقة من أجل الوفاء بحاجات البيت والأولاد التي لا نهاية لها. لذلك كنت مشغولة دائما عنه وعن الطفلين، والآن بعد غيابه فالطفلان يفتقدان رعايته في حضوري وغيابي فهما والفن كانا شغله الشاغل عن الدنيا وما فيها.

- ٤ -

خرج يوم الحادث بعد خروجي، وكان في الصباح بشوشا لكنه لم يخبرني بأنه ينوي الذهاب إلى الشاطىء، ولا أدري كيف هان عليه الولدان ولا كيف هنت أنا عليه، وكنت الاحظ في الأيام الأخيرة أنه ساخط اكثر من المعتاد، ناقم على النقاد بسبب تجاهلهم حتى للقليل الذي نشر له، ناقم على الأصدقاء الذين ساعدتهم الظروف على النجاح وتحقيق الشهرة، ناقم على الدنيا بأسرها لأنها على حد قوله تعطي الحلق لمن هم بلا أذنين. وكان آخر عهدي به، ثم خرج ولم يعد ولا عادت حتى جثته، ولم يخلف لي سوى الحيرة بين العمل ومقتضياته ورعاية الولدين.. حتى قطعة الأرض التي ورثها عن والديه في القرية لا أستطيع تحصيل إيجارها بسبب مشاكل استخراج شهادة الوفاة ومن

ثم اعلام الوراثة من بعدها ولن يكون ذلك قبل أربع سنوات أو تظهر الجثة، ولكن الأصدقاء بارك الله فيهم لم يتخلوا عني أنا والولدين، فهم يقدمون إليَّ العون من خلال المجلس الذي عاد وانتظم في بيتي وكأن حسن بركة لا زال حيا يرزق. فلا حرمني الله من أصدقاء حسن فهم العزاء من بعده فاخلاصهم لحسن ووجودهم حولي بركة. ويكفي هذا لأن يخفف من مأساة غيابه، وأسأل الله ألا أبرأ من وهم حضوره.

- ٥ -

أثار نشر مذكرات بثينة زوجة المؤلف المغمور حسن بركة الذي اختفى في البحر تاركا ملابسه على الشاطئ - أثار اهتمام صحافة الحوادث فشرعت في تحري التفاصيل الدقيقة الخاصة بالحادثة وبحياته وحياة أسرته من قبل ومن بعد اختفائه. وقال رئيس تحرير صحيفة «القيل والقال» مؤنس أبو سبت لمحرر صفحة الحوادث «هذا موضوع يمكن أن نشغل به القارئ لمدة عام على الأقل ان لم يكن أكثر. لذلك عليك بتحري التفاصيل في كل جزئياتها وتتبع أفراد أسرة حسن بركة في حركاتهم وسكناتهم حتى ولو كان الشهيق والزفير».

رد المحرر: نحن لسنا جهة تحقيق حتى نتحرى الدقة

والتفاصيل إلى هذه الدرجة.

رد رئيس التحرير: القارىء مهتم جدا ولا بد بالتالي علينا أن نهتم ونشبع ظمأه للمعرفة ونرضي كل فضول له.. أما أننا لسنا جهة تحقيق فلا تَنْسَ يا ربيع أن الصحافة « سلطة رابعة » هل تفهم؟

أومأ ربيع برأسه دلالة على الاقتناع وهز رأسه بالتحية. والتفت خارجا وقد سيطر عليه شعور بالزهو بعد أن ذكّره رئيس التحرير بأنه ممثل السلطة الرابعة، كما لم ينس أن ما سيكتبه سيتوقف عليه توزيع الصحيفة لمدة عام، لأن القضية صارت قضية رأي عام بعد ما حدث من تعاطف القراء مع المؤلف المختفي وأسرته، وبعد ما واجهه من موانع وسدود في سبيل نشر مؤلفاته. وراود القراء شكوك في حقية كثير من المؤلفين في أخذ مكانتهم في الصف الأول بعد نشر مقتطفات مطولة من مؤلفات المؤلف المغمور وتهافت الناشرين على نشر انتاجه، لولا أن زوجته ليس لها الحق في التصرف في مؤلفاته الا بعد تقييمها من قبل خبير وتقدير قيمتها المادية، بحيث لا يسمح لها ببيعها بأقل من ذلك، وقبل ذلك لا بد من ثبوت الوفاة واستخراج اعلام الوراثة لها ولأبنائه. وهذا كله يتطلب الصبر سنوات. فهل تظل لحادثة في وعي جمهور القراء أربع سنوات؟، وهل يظل

اهتمام الصحافة طوال هذه المدة؟، ومن قبل ومن بعد هل تصمد هي وأولادها أمام مطالب الحياة هذه السنوات الأربع والأسعار كل يوم في صعود ودخلها رغم كل شيء لا يمسح دمعة الوليد؟

وأمام ذلك لم تجد بدا من استثمار نهم القارئ ومن ثم فضول الصحفيين من صفحة الحوادث إلى أقصى حد، فصارت تدلي بالتفاصيل الكثيرة حول أصله... مسقط رأسه.. هجرته إلى القاهرة.. مأكله، مشربه، ملبسه.. أصدقائه.. وظيفته.. حبه لها ولولديها، وراحت تطبع كل ذلك بطابع أسطوري يأسر ألباب القراء وعقولهم. وراحت توزع التفاصيل على الصحف اليومية بعدل التاجر الفطن حتى تشترك الصحف جميعا في الترويج لتجارتها، وكلما أوشك الموضوع أن يفتر في نظر القراء والمحررين فجرت قنبلة حول حياة زوجها الغائب او كتاباته وتجاهل النقاد له، وغالبا ما تكون قنبلة تشعل جذوة الحريق في نفوس القراء من جديد. وأحيانا يشارك أصدقاؤه في المعركة مطالبين بتحويل بيته إلى متحف ثقافي ومزار سياحي يتاح لهم فيه الاطّلاع على مخطوطاته ومكتبه وحجرة نومه حيث كان مرقد عبقريته وضرام حبه ومهبط وحيه والهامه وسخاء أحلامه. ولم تكذب بثينة خبرا..

شرعت على الفور في تجهيز البيت بحيث يصبح لائقا لتنفيذ الفكرة، جديرا بجذب الزوار. فشرعت تفكر في تغيير بعض أثاث البيت، لكن أحد الأصدقاء حدثها بأن الصدق له سحره وبأن البساطة التي يتمتع بها بيتها ستشد إليه الزوار. فوفر عليها الكثير وجلب لها ما هو اكثر. فالزوار من كل حدب وصوب صاروا لا ينقطعون عن بيتها متأملين قلمه المتواضع ومكتبه المتهالك وكتبه الثمينة ومؤلفاته القليلة التي بدت في نفوسهم كم هي رائعة، وخطاباته إلى أصدقائه وردودهم عليها. وقد رأى أصدقاؤه في الاسهام بإعادة خطاباته إلى زوجته أقل اسهامًا في مساعدتها، بل كانوا يبذلون الكثير في مساعدة أسرته.

أما الزهور التي كان يقتنيها فصارت الزهرة منها تباع بمقابل كبير، وكانت زوجته تكثر من هذه الزهور بعد أن صارت عرضة للتناقص بسبب كثرة الزوار. كتبه التي قرأها وسجل خواطره على هوامشها صارت صورة صفحة منها تعني الكثير بالنسبة للزائر، وتساوي ما هو أكثر يدفعه عن طيب خاطر ويخرج وكله زهو بما اقتنى من متحف المؤلف الذي لم يعد مغمورا بعد أن طافت شهرته الآفاق. تزوره كل الفئات من كل أرجاء المعمورة بعد أن نسجت حوله

الأساطير، حتى لم يبق إلا أن يزوره المرضى ذلك لو أن في زيارتهم له ترياقاً.

الشاهد أن الزوار دائما إلى بيته في سباق، وبثينة وأصدقاؤه ورجال الصحافة ساد بينهم ما يشبه الوفاق، على ان العبقرية تجد طريقها إلى الناس، طال الزمن أم قصر حتى وان لم يحدث ذلك إلا بعد وفاته.

تعاطف محرري الصحف مع أسرة الغائب هو الأمر الظاهر. لكن مؤنس أبو سبت رئيس تحرير القيل والقال لا يقف عند حد في نهمه للإثارة. مرة حدّثه ربيع بأنه لمح بثينة تلتقي في «سوق شادية» بالابراهيمية بشاب وسيم متهدل الشعر، وان اللقاء اختصر حينما رأته على مقربة منها. قال مؤنس أبو سبت حين سمع ذلك منه:

- جميل.. وراها.

قال له ربيع: ماذا تقول؟

- أقول وراها.. ألسنا وراء كل ما هو مثير دائما.

- حتى ولو كان أمرا شخصيا!

- بثينة وزوجها المؤلف المغمور صارا من الشخصيات

العامة.. والشخصيات العامة لا يبقى لها من حياتها حتى ما هو شخصي.

احتج ربيع وقال: هذا لا أقتنع به.

ـ عندي من المحررين من يقتنع به ويتمنى فرصة كهذه ترفعه لفوق وتخفض أسهمك التي لم ترتفع الا بهذه الفرصة وأمثالها.

اضطرب ربيع وقال في قلق وارتباك: فهمت يا مؤنس بك..

ـ ماذا فهمت؟

ـ فهمت أنه ليس هناك ما هو شخصي.

ـ وأن لا أحد فوق مستوى الشبهات ونحن كصحافة وسلطة رابعة نريد أخبارًا.. أخبارًا.. أخبارًا.. خبطات صحفية.. ضربات معجزة للصحف الأخرى.. ماذا تنتظر... جالك الفرج.. وحظك ضرب يا ربيع.

ودأب ربيع منذ ذلك الحين على تتبع خطى بثينة في كل مكان دون أن تلحظه.. ولكن كان أحيانا تفرق بينهما شاحنة كبيرة فيفقد أثرها ويوجه لصدغه لطمة عقابا لنفسه على تفادي وقوع حادثة له كان يمكن أن تودي بحياته لكنه

كان يرى موته أهون من وقوفه أمام رئيس التحرير عرضة للتوبيخ واللوم على التقصير في مهمته.. فمؤنس أبو سبت يرى أن المقامرة بحياة محرر عنده في سبيل ضربة صحفية أمر يسير. فالمهم عنده أن يتحرك توزيع صحيفته القيل والقال من حسن إلى أحسن مهما كان الثمن. وأن يكون رقم التوزيع في صعود على مر الزمن لذلك كان ربيع بعد كل فرصة تضيع منه جد حزين.

لكنه كان يعاود الكرة المرة تلو المرة وينصب لبثينة عند كل خروج لها من البيت كميناً فهو ملاحق لها كظلها في الغدو والرواح يرصد حركاتها وسكناتها، كل ذلك في دأب النمل ولكن في خفة الغزال وحذره، فليس للخطأ مجال. ولكن ماذا يفعل أمام الخطر الداهم المتمثل في اندفاع سيارة تفرق بينهما؟.. ماذا يفعل والنفس عزيزة والحياة رغم كل شيء لذيذة، لذا كان يتحمل كثرة تأنيب رئيس التحرير الذي لا يجرؤ على اخفاء شيء عنه، فبنظرة من عينيه يعترف أمامه بما حدث كالتلميذ البليد ويخرج من مكتبه مشتتا حائرا بين الوعد والوعيد، الوعد بمنصب اذا أنجز مهمته غير المحددة والوعيد اذا قصر في اقتناص فرصة هي دائما متجددة لاكتشاف أمر ما.. ما هو.. ما أدراه وكل شيء في علم الله.

العالم الآخر غيب لا يعلمه إلا الله. وأنه حتى لو علمه أحد ممن انتقل إلى جوار الله فانه لن يسمح باملائه لأحد، فالله جل في علاه لو شاء كان أملاه في كتبه ورسالاته لا يتركه لكل من هب ودبَّ يطَّلع عليه فيعرفه ومن ثم يفشيه. تأمل مؤنس أبو سبت كل ما تناهى إلى علمه من تصريحات بثينة ولم يعلق بشيء فقط قال لها:

- ما رأيك لو نحضر روحه.

هتفت كالمستنجدة: فكرة ولكن كيف؟

- تحضير الأرواح علم له أصوله.

- لكني لا أعرفه.

- لا بد أن هناك من يجيد ذلك ويمكننا استدعاؤه.

- تذكرت رجلا يجيد هذا الأمر بل رجال.. أترك ذلك لي فأنا أعرف كثيرين يتمتعون بقدر كبير من الشفافية وهم يقومون بتحضير الأرواح.. ولكن أين نجتمع؟

- في أي مجلس عندك أو عندنا في الجريدة وذلك يكون أحسن.

- تريد أن تفوز بالكنز وحدك.

- ولم لا؟

ـ لا مانع.. ولكن روحه تحوم في البيت.. وتحضيرها في البيت أسهل.

ـ لا بأس من حضور أصدقائه القدامى حتى يتعرفوا على صوته فذلك أمر هام لاقناع الرأي العام.

ـ أنا زوجته.. ألا تكفي معرفتي لصوته بكل ذبذبة فيه.

ـ أنا معك.. لكن رأى جماعة أصدقائه مهم فالقارىء والناس عامة يقتنعون برأي الجماعة اكثر من رأي الفرد.

ـ كما ترى.. ولكن البيت محدود فأرجو أن تكون الجماعة محدودة.. صديقين أو ثلاثة وصحفي عن كل صحيفة وقفت إلى جانب أولاده وليكن ذلك كل يوم في التاسعة مساء بعد نوم الأولاد حتى لا أزعجهم، فادراكهم لا زال صغيرا.

ونشرت الصحف للقراء بشرى أنها ستوالي نشر رواية حسن بركة التي يرويها من العالم الآخر. وقامت الدنيا ولم تقعد بعد نشر أول حلقة من روايته.. من العالم الآخر. وأكد أصدقاؤه وزوجته أن الصوت الذي سمعوه صوته وسجلوا صوته على شريط. وضم إلى المتحف شريط اثر شريط، وترك مؤنس أبو سبت الأمر مفتوحا لتعليق القراء

والعلماء، وتوالى نشر الانطباعات المؤقتة للنقاد عن لغة وفكر وفن المؤلف وأبدوا الكثير من الأسف لرحيله وتمنوا لو يعود إلى الحياة كي ينصفوه من أنفسهم فلم يقض عليه الا امعانهم في تجاهل انتاجه في حياته، الأمر الذي دفعه إلى الانتحار هربا من واقعه المر الأليم.

وتتابع نشر الحلقات مرة طويلة ومرات قصيرة، وكانت تنتهي كل الحلقات بعبارة «أنا متعب.. اسمحوا لي أن أنصرف الآن». وكأن المؤلف المغمور حسن بركة صار شهرزاد وأدركه الصباح فسكت عن الكلام المباح. وطوال المجلس كنا نسمع بكاء زوجته المكتوم ونشيج أصدقائه.. بل وحدث أن كان ينصرف بعضهم ولا يستطيع اكمال المجلس. وبعضهم لم يكرر الزيارة لعدم قدرته على تحمل الموقف. والصحف تنشر كل جزئية من هذه الجزئيات فيزداد ولع القراء بتتبع الموضوع والرواية التي يمليها، وناقش العلماء مسألة تحضير الأرواح واختلفوا حول مدى صحتها فهم بين مصدق ومكذب، وكان زوار المتحف يطلبون سماع تسجيلات المجلس الليلي الذي يملي فيه المؤلف الراحل روايته وذلك نظير مبالغ خيالية.. لم تحددها بثينة ولكنهم يتركونها على المائدة بجوار جهاز التسجيل ولا تقربها بثينة حتى ينصرفوا. وتسأل الفتيات والشبان عن طعامه وشرابه المفضل

وكذلك الألوان وطراز الملابس ونوع العطور وأي أنواع النساء يعتبرها مثيرة. وهنا تشير بثينة إلى صورتها المجاورة لصورته على الحائط وتقول: لم يكن ليستمر معي لو لم أكن أنا الأثيرة لديه.. انه يزورني حتى الآن في أحلامي ويخصني باملاء روايته من العالم الآخر.. وتذرف دمعة وتقول مكملة حديثها «وهل بعد ذلك حب الا حب أولاده.. فهم قطعة منه».

وينصرف الزائرون الذين لا يفرغون صباحًا ومساءً ويتركونها تعاني الوحدة وتجتر عذابات الحب في سعادة غامرة وعذاب عذب.

- ٧ -

بعد مرور الفترة اللازمة استخرجت بثينة من المحكمة شهادة بأن زوجها مفقود. واستخرجت اعلام الوراثة لها ولابنيها وعينت وصيةعليهم، وبذلك صار لها حق التصرف بكل ما يخصه من املاك ومؤلفات ولكن تحت رقابة المجلس الحسبي، لأن هناك قُصَّراً ولكنها كانت تعتمد على حصتها في الميراث للانفاق بحرية.

وعلى غير انتظار زار المطرب سامح، مطرب المجلس في حياة حسن بركة، زار بثينة وحمل معه الكثير من الهدايا لها ولابنيها. وبعد عتاب من جانب بثينة له على طول انقطاعه منذ وقوع الحادث، وبعد أن أعرب لها عن أسفه لذلك، مبررا موقفه بأنه كان غير قادر على تحمل الموقف خاصة

وان المرحوم كان أكثر من أخ بالنسبة له وأنه قد جاء اليوم ليؤكد وفاءه بعد أن استطاع أن يشق طريقه في عالم الغناء، من خلال امتحان للمطربين الجدد في اذاعة الاسكندرية. وأبدى استعداده لغناء واحدة من القصائد القليلة التي كتبها المرحوم حسن بركة رغم أنه في الأصل كاتب قصة.

وهنا انتبهت بثينة واستيقظت لكلامه بكل حواسها، ولم يفتها أنه انما جاء ليستفيد من الضجة الاعلاميةالمثارة حولها وحول زوجها المرحوم حسن بركة، فاستنفرت قدرتها على المساومة كعادتها في المواقف المشابهة التي عرضت لها منذ وفاته، وان غلفت رغبتها في المساومة بنغمة كلها مسكنة واشفاق على أولادها اليتامى المحتاجين لكل قرش بعد فقدان أبيهم. ويقبل سامح ذلك منها بل ويجزل لها العطاء وتنجح القصيدة بفضل صوت سامح الجميل والضجة الاعلامية التي سبقت وصاحبت وأعقبت إذاعة القصيدة من اذاعة الاسكندرية ثم من اذاعة القاهرة، التي انتهز سامح فرصة لاستضافته في برنامج بها، فتحدث عن مواهب حسن بركة المتعددة في التاليف وعن احساسه المرهف وشدا بقصيدة من تأليفه طرب لها الجمهور. وظلت الضجة متجددة بالنسبة لحسن بركة، وكذلك ذاع صيت سامح الذي كان أهلا للوفاء. وعاود زيارة بثينة وابنيها حاملا لهما

الكثير من الهدايا، وعن طيب خاطر ناولها أكثر من نصيبها من توزيع الشريط، ورجاها أن تفتش في أوراقه عن كلمات أخرى تصلح للغناء. ووعدته خيرا وانصرف واعدا اياها بأنه سيحرص على زيارتهم دائما، وبثينة في غاية من الارتياح له ولزياراته المثمرة.

كل شيء في حياة بثينة وولديها يسير على خير وجه، فهي ناجحة في عملها كمهندسة وفي استثمار تركة المرحوم من التأليف الذي كتبه في حياته ومن الأعمال التي تمليها عليها روحه بعد وفاته، كل شيء يمضي على الوجه الأمثل. فنشرت رواياته وشدا المطربون بقصائده وكتب النقاد عنه بعد مماته ما لم يحلم به في حياته. وولداها يمضيان في التعليم قدما إلى الأمام وبتفوق كبير. وكيف لا وقد كفلت لهما الظروف الجديدة حظا وفيرا من المال وفر لهما فرصة التعليم في أرقى المدارس، كما وفر لهما المدرسين الخصوصيين الذين صار حضورهم إليهم أمراً ميسوراً وان تقاضوا أجوراً باهظة.

كل شيء على خير وجه لكن شيئا واحدا كان ينغص على بثينة حياتها، هو ملاحقة الصحفيين لها في كل مكان خاصة ربيع مندوب صحيفة «القيل والقال»، فهو كوصية رئيس التحرير يلاحقها من البيت بالابراهيمية إلى سوق

شادية حيث تشتري الخضر، إلى الشركة التي تعمل بها كمهندسة الى شقة جليم المفروشة التي تذهب لتحصيل إيجارها، يلاحقها أينما ذهبت في صمت. ولم تجد ما يبرر الاصطدام به، لكنها ضائقة به. فالإنسان أي إنسان يضايقه الاحساس بأنه مراقب أو متابع في حركاته وسكناته، ورغم ذلك لم تفصح عن شكواها تلك لأحد وقالت في نفسها لعله مخبول مولع بها، ومضت في حياتها في حذر من أعين الرقباء كشأن المشاهير وقالت لنفسها إن ذلك قدرها.

وأكد ربيع لرئيس التحرير تكرر لقاءات بثينة بالشاب الوسيم ذي الشعر المتهدل، فاقترح عليه رئيس التحرير أن يترك مراقبة بثينة مؤقتا ليراقب الشاب الوسيم ويعرف من هو، وصدع ربيع للأمر ولكن دون جدوى. فالشاب الوسيم المتهدل الشعر رشيق خفيف الحركة يتعلق فجأة بأوتوبيس مسرع أو يتوه منه في زحام أو يدلف سريعا في شارع جانبي تتفرع منه أزقة صغيرة كثيرة، أما ربيع فلا حيلة له أمام واحد من اهل الحي شديد الدراية بشوارعه وأزقته، لذا كان دائما يعود بالخيبة إلى رئيس التحرير ويلقى نصيبه من التوبيخ. مرة سأل رئيس التحرير ربيع قائلا: قلت لي أن بثينة مهندسة.

أجابه ربيع: نعم.

ـ ألم تعرف في أي فرع من فروع الهندسة تخصصت ؟

ـ وما يعنينا في هذا ؟

قال مؤنس أبو سبت رئيس التحرير : ان كل شيء يعنينا . نحن سلطة رابعة ولا يجب أن يخفى علينا شيء .

قال ربيع في حرج مضحك : فعلا يا أفندم . . نحن سلطة رابعة .

قال رئيس التحرير وهو يشير له بالانصراف : عليك أن تعرف لي ذلك .

أومأ ربيع برأسه بخضوع وانصرف وهو يزمجر بينه وبين نفسه ويصب اللعنات على بثينة وزوجها الراحل حسن بركة ورئيس التحرير الذي لا يعامله كمخبر صحفي وانما كخفير درك في الوقت الذي ولّى فيه زمن الخفراء . ومع ذلك صدع للأمر ونصب كمينا دائما لبثينة وصديقها الوسيم ذي الشعر المتهدل في سوق شادية بالابراهيمية . لكن الخيط انقطع ولم يعد يراهما هنا . فاكتفى بتحري طبيعة وظيفة بثينة كمهندسة وتخصصها ، فلجأ الى موظف في شئون العاملين بالشركة دون سابق معرفة ، وكان الموظف حصيفا ارتاب في الأمر فسلمه لمسئول الأمن بالشركة الذي صرفه في زجر بعد أن اطمأن إلى أنه صحفي . فحين وقع ربيع في المأزق أبرز بطاقته الصحفية لمسئول الأمن فوبخه وصرفه .

وعرفت بثينة بالأمر واتصلت تلفونيا بمؤنس أبو سبت رئيس التحرير تعاتبه على تعقب ربيع لها وتسأله: «ما يعنيكم في تخصصي»، وبذكاء أجاب: «اننا نريد أن نكتب موضوعا عن لقاء العلم والأدب في بيت حسن بركة، والعلم والأدب لقاؤهما لقاء الشتيتين».

ورغم عدم اقتناع بثينة شكرت رئيس التحرير على اهتمامه المتجدد بحياة المرحوم زوجها ووضعت السماعة وهي تكاد تشد شعرها متبرمة بهذه الملاحقة التي أصبحت تمقتها. فلم يعد لها من حياتها الخاصة شيء لها الحق في إخفائه، ولم تعد منذ ذلك الحين تجد في الناس من حولها من تطمئن إلى ولائه. فصارت تتحرك في الخفاء وكأنها ارتكبت جريمة بزواجها من حسن بركة، وها هو قد ذهب ولم يترك لها بعد كتبه الا الحسرة فبئس التركة. ولاذت بالوحدة وقالت انها خير من جليس السوء، وصارت اذا أرادت أن تكون بعيدة عن العيون تخرج مع أول دقيقة بعد خروج ولديها إلى سيارة المدرسة وتعود قبل عودتهما، وصارت عصبية في لقاءاتها مع صديقها الشاب الوسيم المتهدل الشعر، فقال من رآهما بعد ذلك أنهما صارا يشوحان بيديهما لبعضهما كما لو كانا يتشاجران ويفترقان في قهر ويكادان يسبان الدهر لولا خشية رقيب لا ينام.

- ٨ -

وفي باب « أبو العريف » نشرت صحيفة « القيل والقال » خبرا يقول إن أرملة الكاتب الراحل حسن بركة بدأت تخفف من الحداد وتلتقي بشاب وسيم متهدل الشعر، وقالت الصحيفة إنها أجلت الافصاح عن اسمه حتى يعلن الحب عن نفسه ويتوج بالزواج، حينذاك تزيح الصحيفة عن اسمه ووجهه النقاب.

وثارت بثينة ولم تدر ماذا تقول لولديها اللذين علما من زملائهما، ولا كيف تواجه نظرات الجارات المترحمات على زوجها الراحل الناقمات عليها لعدم وفائها، ولم تجد للخبر المنشور في الصحيفة عذرا ولا لنظرات الجيران والجارات ولمزاتهم مبررا، ولكن لم تدر ماذا تفعل أو تقول لولديها..

ليس أمامها سوى أن تنفي صحة الخبر لها، وقالت لنفسها: «وماذا أقول لنظرات الجيران والجارات؟..» وخطر لها أن تتصل بمؤنس أبو سبت لتنفي الخبر ولكنها لسبب ما بداخلها اعرضت عن الاتصال بالصحيفة وقالت لنفسها: «أن لا شأن للناس بها، وأنه ان كان لنشر الخبر صدى فهو محدود ولن يتعدى نطاق الاسرة والجيران». أما الأصدقاء فقد خفت ارجلهم عن البيت وانقطعت زياراتهم شيئًا فشيئًا اللهم الا المطرب سامح الذي يتردد بدافع الوفاء لزيارة ولدي حسن بركة، وحمل الهدايا لهما، وهي زيارات تتم في النور لا في الخفاء. والوفاء أمر لا غبار عليه ولكنها أصبحت تخشى الألسنة وتتوجس خيفة من الغيبة والنميمة وتمتمت بينها وبين نفسها «بئس الداء».

انشغلت بهذه الأفكار ووجدها ولداها مشغولة البال فانصرفا لاداء واجباتهما المدرسية من تلقاء نفسيهما دون الاستعانة بها هذه المرة، ثم استسلما للنوم دون عشاء، كل ذلك وهي شاردة الفكر، ولم يقطع عليها أفكارها الا رنين جرس الباب في هذا الوقت الذي قارب منتصف الليل وتساءلت في خوف عن الطارق.. من تراه في هذا الليل الداكن؟ واقتربت من الباب وتساءلت بصوت خافت: من؟

رد صوت تعرفه: أنا.. افتحي.

انتابها خوف وحيرة وتلفتت يمنة ويسرة، وفتحت الباب فدلف فتى الابراهيمية الوسيم المتهدل الشعر وارب الباب خلفه، فقالت في هلع:

- ماذا تريد.. الولدان نائمان ويمكن ان يستيقظا في أي وقت.

- لا يهمني شيء.

والتقط أنفاسه لحظة ثم قال متسائلا:

- قرأت الخبر.. من يكون.. هل هناك غيري؟

- يا للأسف.. تشك فيَّ بعد كل ما بيننا.

وأمسك بتلابيبها وعاد يسأل:

- من يكون فتى سوق شادية.. روميو الابراهيمية؟

فتوسلت إليه بصوت خافت: اتركني ولا تكن أحمق.. انه أنت ولا أحد غيرك.

قال منكرًا: أنا لست وسيما ولا متهدل الشعر.

ابتسمت وقالت ممررة كفها على شعره: ألا ترى أنك أصبحت وسيما متهدل الشعر حتى صرت أخشى عليك من الجميلات.

شيء ما جعله يهدأ ويصمت ثم يعود ليتساءل: من رآنا؟

ـ ذلك الصحفي الذي يلاحقني كظلي أينما ذهبت رآنا في سوق شادية.

ـ والحل؟

ـ الحل هو التعقل في التصرف والثقة.

ـ قرأت الخبر فطار صوابي.

قالت معاتبة: والثقة أين راحت؟

ـ في هذا الزمان لم يعد هناك شيء اسمه الثقة.

ـ منذ عرفتك لم ينفتح قلبي لغيرك.

ـ الفراغ والوحدة في بنسيون جليم فتحت عقلي لوساوس الشيطان، وانقطاعك عن لقائي لفترات طويلة أسلمني للشك واليأس والحيرة والغضب.

ـ ما بيننا لا يدع مجالا للشك.

ـ حتى لم تحضري لأخذ الايجار.

ـ وهل بيننا ايجار؟.. وكما تعلم بقية الحجرات خالية.. وعسى أن يأتيها سكان خاصة وأن الدراسة في الجامعة على الأبواب كي يؤنسوا وحدتك.

ضمها وقال: اوحشتيني.. لا يؤنسني إلا أنت.

استسلمت لضمته لحظات ثم انتزعت نفسها من بين يديه

وقالت: **انصرف الآن قبل أن ينتبه الجيران.**

- اللعنة على الجيران وعلى كل شيء.

- اللعنة الحقيقية هي ذلك الصحفي الذي يلاحقني صباح مساء وليس ببعيد أن يكون مرابطا في موقع ما بالقرب من البيت.

- في هذا الوقت؟

- كل شيء جائز.. انصرف الآن وانفض عن نفسك الوساوس فهي من الشيطان.

- اليأس مدمر.

- اذا لا تدعه يدمر كل شيء.

قبّلها ثانية وأوصاها بألاّ تطيل غيابها عليه ثم انصرف خارجا وهو يتلفت يمنة ويسرة كاللصوص. أطلت هي من شرفة البيت لتقوم بدور الناضورجي حتى انصرف من الباب الخارجي وتابعته ببصرها حتى ابتلعته الظلمة وتنفست الصعداء. ثم دلفت إلى الداخل كمن يحمل أثقالا وأزاحها عن كاهله، واستسلمت لنوم متقطع هو حظها منذ رحيل زوجها المرحوم حسن بركة، الذي استراح بموته. بينما هي لم تعرف السبيل إلى الراحة فحياتها منذ ذلك الحين اكتنفها

الضجيج وملاحقة الفضوليين والصحفيين ونظرات الجارات والجيران، والأسئلة الصامتة في عيون ولديها. كل ذلك كان عبئا ثقيلا عليها. وتساءلت بينها وبين نفسها: «ما لهم ولي، أليس من حقي أن أجد من يحمل عني بعض هذا العبء»، ولاقى السؤال تجاوبا في نفسها وارتعد له بدنها فأجهشت باكية ممزقة بين أفكار شتى.

- ٩ -

صار الحب مسجونا في بنسيون جليم ومقتصرا على اليوم الأول من الشهر حين تذهب لتحصيل ايجار السكن من القاطنين من الطلبة، ومن بينهم فتاها الوسيم المتهدل الشعر، وتتقاضى منه الايجار علانية وتدس في جيبه في الخفاء مبلغا أكبر من الايجار بكثير، ولاحظ قاطنو البنسيون في الشتاء وهم من طلبة الجامعة أنها تخصه بالزيارة في غرفته وان الزيارة تستغرق وقتا طويلا، وناقشوا الامر فيما بينهم وقرر غالبية السكان أن لا شأن لهم بذلك، الا ذلك الفتى القروي حامد الذي يتمتع بقوة بدنية ورعونة ليست غريبة على شاب في مثل عمره قال: كيف لا شأن لنا.. أنا لا أستطيع أن أغض النظر عما يحدث في البنسيون. كونها صاحبة

البنسيون لا يعطيها الحق في استغفالنا.. بقي أن يركب كل منا لنفسه قرنين.

وحاول كل من بالبنسيون تهدئته لكنه تظاهر بالهدوء حتى رآها خارجة من عند فتاها فاعترضها يسد طريقها بيديه قائلا: الخير لا بد أن يعم.

وتساءلت: ماذا تقصد أيها المجنون؟

قال وهو يهجم عليها ليجرها إلى غرفته: مثلنا مثله.. كلنا سكان. واذا كان يدفع فأنا مستعد لأن أدفع مثله وأكثر. واندفع الفتى المتهدل الشعر يخلصها من بين يديه فكان نصيبه عدة لكمات أسالت الدم من أنفه وفمه وصرخ: «انقذوها من بين يديه انها خطيبتي».

واندفع سكان البنسيون يخلصونها من بين يدي حامد ونجحوا ولكن بعد أن تمزق ثوبها، بعدها ثارت ضجة في العمارة كلها، فنزل السكان من كل الطوابق إلى الدور الأرضي حيث البنسيون يستطلعون الامر واندس بينهم ربيع الصحفي الذي كان قد تتبع بثينة حيثما ذهبت. لكن بثينة عالجت الأمر بعقل وحكمة فقالت إن الأمر لا يعدو خلافا على قيمة الايجار وأيدها بقية السكان في ذلك، واختفى

فتاها المتهدل الشعر في غرفته حين لمح الصحفي ربيع. وانصرف سكان العمارة كل لحال سبيله وجر ربيع رجليه خارجا في حرج أمام نظرات بثينة الغاضبة من تتبعه لها، لكن نظراته أوحت بأنه لن يلبث أن يعود ليستطلع حقيقة الأمر، فهو لم يصدق أن المسألة لا تعدو أن تكون خلافا حول الايجار، وأن في الأمر شيئا لا يفوت صحفيا مثله شديد الفضول يتتبع رائحة الأخبار بحاسة صحفي مدرب لا يتمتع بمثلها الا من كان له أنف كلب بوليس مدرب.

وبقيت بثينة في غرفة بالبنسيون حتى أصلحت ثوبها الذي تمزق أثناء الشجار، وبعد ذلك راحت توضح للسكان حقيقة الأمر من وجهة نظرها، وأيدت ما قاله فتاها من أنها خطيبته، لكن حامد لم يقتنع وقال: حتى اذا كنت خطيبته هذا لا يعطيكما الحق في اغلاق الباب واحكام الرتاج عليكما وصرخ قائلا بأعلى صوته «... يا ناس نحن شباب.. لحم ودم».

وثارت بثينة في وجهه لأول مرة: أنت غبي.. هذا خطيبي وسنتمم العقد اليوم وسنقيم هنا.. هذا بيتي أخرج لا أريدك في البنسيون.

ـ أنا أدفع ايجارا.. وليس في وسعك اخراجي من السكن.

قالت في هدوء: لا تنسى أنه ليس معك عقد.. وكتبك وأشياؤك من السهل إلقاؤها من الشرفة في أية لحظة.

- سأفضحك في المنطقة كلها.. وأنا معك حتى قسم الشرطة.

وسرت رعدة في بدن بثينة فهي لا تريد فضائح ولا أقسام وهي تدري ما يجره الذهاب إلى القسم عليها من مشاكل، هذا بخلاف فضائح النشر في الصحف وربيع متحفز لمعرفة أخبارها، وأبو سبت لن يتردد في نشر كل ما يتعلق بها خاصة بعد أن سلطت الأضواء عليها من كل جانب، لكل ذلك هادنت حامد وقالت: أنا في سن اختك الكبيرة.. فهل ترضى لأختك الإهانة؟

قال في رفض: لا شأن لك بأختي.. هي شيء وأنت شيء آخر.

قالت وهي تحاول التحكم بثورة غضب أخرى اعترتها: اذا كان لديك شك في خطبتنا وان اغلاق الباب هو ما يغضبك.. سنعقد قراننا الآن وستكون أحد شاهدي العقد.

ساد صمت حرج أخرجتهم بثينة منه مداعبة حامد بقولها: والعقبى لك يا حامد.. سيكون الشربات على حسابك.

وضحك الجميع وساد جو مرح خرج خلاله الفتى المتهدل الشعر وهو يحمد الله على أن الأمر قد مر بسلام، وقدمته لهم قائلة: رفعت الشامي خطيبي.. وزوجي خلال ساعة من الآن.

وحضر المأذون في هدوء تعمدته بثينة وعقد القران وانصرف دون ضجيج حتى لا يتسرب الأمر للصحافة. وقالت بثينة للجالسين حولها: «إن رفعت الشامي سيبقى مقيما في البنسيون وأنها ستزوره في سكنه من حين لآخر حتى لا تغضب ولديها اليتيمين».

واقتنع الحاضرون بما انتهى إليه الأمر وحمدت بثينة الله على ذلك، وانصرفت عائدة إلى ولديها قبل أن يخيم الظلام. وسارت وهي تقول لنفسها: «انكتب لك عمر جديد يا بثينة وداريتي الفضيحة..» وأحست وكأنها محكوم عليها بالاعدام، تعطلت المقصلة ساعة تنفيذ اعدامها، فهي قد نجت من التشهير بها الذي كان سيجعلها من النساء اللواتي يشير إليهن من يراهن ببنانه، وهذا هو السقوط بعينه ولا تدري هي ماذا بعد السقوط.

- ١٠ -

لم يفت ربيع الصحفي بصحيفة القيل والقال والذي تربص قرب شقة جليم خاصة بعد الضجة التي أثارت انتباهه، ولم يحظَ بتفاصيلها بسبب لباقة بثينة والسكان في معالجة الموقف. لم يفت ربيع ملاحظة دخول المأذون بصحبة أحد ساكني البنسيون ثم خروجه بعد فترة وجيزة، فالعمامة والدفتر دليل فرح لا تخطئه العين، لكل ذلك لاحق ربيع المأذون في الحاح يليق بمخبر صحفي، فأغراه بنشر صورته مع الخبر وحصل على معلومات عن العريس والعروس من الدفتر وهي منقولة من واقع البطاقات الشخصية، وسجل ربيع المعلومات الخاصة بالعريس فقط فهو يعرف عن العروس أكثر مما يعرفه عن نفسه فكتب في أوراقه.. رفعت الشامي. المولود في السادس عشر من يناير عام ١٩٤٢ ببلدة

مطوبس. بطاقة شخصية رقم ٣٦١٩ سجل مدني مطوبس، ومقيد في خانة الوظيفة أنه من الأعيان.

وفور انتهاء ربيع من تدوين المعلومات هرع إلى رئيسه مؤنس أبو سبت يزف إليه الخبر الذي فرح به مؤنس، لكنه أرجأ النشر حتى يتيح للعروسين احساسا بالطمأنينة فيتصرفا على سجيتهما بشكل يتيح له مزيدا من المعلومات، وبعث بربيع إلى مطوبس مسقط رأس العريس ليتحرى صحة المعلومات من أهل مطوبس وكذلك من السجل المدني. وأتاح اختفاء ربيع فرصة للعروسين لتنفس الصعداء فكانا يتنزهان ويقضيان الوقت معا طوال فترة وجود الولدين في المدرسة، وكذلك الشبان في الجامعة، فنهل العروسان من نبع الحب الذي لا ينضب خاصة وقد توجا حبهما بالشرعية، وان اقتصر العلم بالزواج على سكان البنسيون والمأذون بطبيعة الحال، ولم يدر بخلدهما أن المأذون قد أفشى السر في نوبة من نوبات حب الظهور، ولن يستطيع أحدهما محاسبته فالعبرة في الزواج بالاشهار، لذلك لن يجرؤ أحد على لوم المأذون فلا حرج في موقفه وليس عليه ثمة غبار فلا مكان في حالة الزواج للكتمان أو الأسرار.

وعاد ربيع بمعلومات هامة سلمها لمؤنس أبو سبت في

صمت بينما وجهه يطفح بالبشر وراح يراقب علامات الدهشة على وجه مؤنس وهو يقرأ تقرير ربيع من واقع رحلته الى مطوبس... البطاقة مزورة وليس ثمة عائلة تحمل لقب «الشامي» في كل أنحاء مطوبس، والأعيان فيها معروفون وليس بينهم واحد يدعى رفعت أحمد الشامي. وحتى رقم البطاقة لا وجود له في كل سجلات السجل المدني بمطوبس. وتأكد لمؤنس أبو سبت أن الأمر يدعو إلى الريبة من أوله إلى منتهاه، وتحفز للعمل وحفز ربيع كذلك ممنيا اياه بقرب تنصيبه رئيسا لأحد الأقسام بالصحيفة.

ونشط ربيع من جديد في ملاحقة بثينة والجد في اثرها، ونصحه مؤنس بأن يستخدم عقله أضعاف أضعاف استخدامه لقدميه حتى يستطيع أن يضع على الحقيقة يداه. وقال إن ذلك لن يتحقق الا بأن يضع الزوجين نصب عينيه. وقال مؤنس لربيع أنه يحس أنهما على أبواب ضبطة صحفية كبيرة.. ونصحه بألا يترك الفرصة تفلت منه وقال إن الضمان الوحيد لذلك هو السعي والكتمان وأردف قائلا له: «أوصيك بالكتمان ثم الكتمان ثم الكتمان، ذلك لك بمثابة امتحان.. ويوم الامتحان يكرم المرء أو يهان».

وهز ربيع رأسه وانصرف بكل حواسه ووجدانه وعقله

إلى أداء المهمة الموكلة إليـه وهـي بـالتحـديـد جمع كـل المعلومات الممكنة عن كلا العروسين من جديد، كأن ليس لديه أية معلومـات سـابقـة عنهما ورصـد تحركـاتهما دون احتكاك ما أمكن ويتجنب الصدام الا ما ليس منه بد أو فكاك.

- ١١ -

تعرف ربيع إلى فتى البنسيون حامد بطريقة غاية في البساطة على محطة ترام كامب شيزاز. ألقى عليه تحية الصباح بطريقة من كان له سابق معرفة به وقال بطريقة من يعرف معظم الأمر ويريد استكمال معرفته به قال:

- ماذا حدث بعد الشجار هل تم الصلح؟

تنبه حامد إلى أن السؤال موجه إليه بعد أن تلفت حوله فلم يجد أحداً سواهما فقال: تكلمني أنا؟

رد ربيع بالإيجاب وأردف: أنا جارك في العمارة التي تليك على اليمين وقد شهدت كل شيء.. لقد كنت كالوحش الكاسر.

ضحك حامد وقال ساخرا من نفسه: وانتهى بي الأمر كالحمامة الوديعة.

سأل ربيع في فضول: كيف؟

- انتهى بي الأمر شاهدا على زواجها بعد أن كنت شاهدا على علاقتها الآثمة.

- استغفر الله.. كيف كان ذلك.

- كانت تزوره في غرفته ويغلقان على نفسيهما الباب أوقات طويلة.. ثار الدم في عروقي.

- بالطبع كشأن أي رجل حر.

- وكانت الفضيحة التي شهدتها.. حاولوا تهدئتي ولكن لم تبرد لي نار حتى جيء بالمأذون وأتم عقد زواجها.

- أنت ذكر.

ابتسم حامد وقال: تصور أن الأمر انتهى بي شاهدا على زواجها.. يا لي من ساذج غر.

قال ربيع محنقا: المهم أنك شاهد على حلال.

قال حامد متسائلا: أتظن ذلك؟

هز ربيع رأسه وقال: موقفك في الأول والآخر لا غبار عليه.. رفضت ما حرم الله وشهدت على ما أحل الله.

ـ نعم.. لم أكن أستطيع أن أغض البصر عما يحدث في البنسيون.

سأل ربيع: من صاحب البنسيون؟

رد حامد قائلا وهو يقفز في ترام الجامعة ويلحق به ربيع: انها العروس نفسها سبب الشجار.

ـ ومن الفتى الذي تزوجها؟

ـ لا نعرف عنه شيئًا وهو منطو على نفسه لا يختلط بأحد في البنسيون.. دائما في حجرته وحيدا.

ـ عجيب أن تختار من بينكم الشاب المنطوي على نفسه.

رد حامد بسرعة من يتمتع بحسن البديهة: الانطواء ضمان الكتمان للأسرار.. وما بينهما كان سرا لم أطقه.

ـ ألم أقل لك انك ذكر.. في أية كلية أنت؟

قال بفخر: كلية الوزراء.. الحقوق.

ـ وزملاؤك؟

ـ أحدهما في كلية الهندسة والآخر في كلية الآداب.

ـ والفتى؟

ـ بطاقته تقول إنه من الأعيان.

ـ قل صايع.

- مظهره لا يدل على ذلك.. فهو هادىء جداً.

- جَبان.

- ثمة حزن دفين في نفسه.. وخوف غامض يطل من عينيه.

- انك تتمتع بدرجة عالية من الفراسة.

- أنا أعد نفسي لأكون وكيلا للنائب العام.

- ليس ذلك بعسير عليك ولا كثير.

- قال ليس بكثير على الله.

- أنت تستاهل كل خير.. ماذا تعمل صاحبة البنسيون؟

مهندسة.

- ميكانيكية؟

انها في شركة لعمليات الكهرباء كما تقول.

- مهندسة كهرباء خفيفة يعني.. شيء عظيم.

- لا هي عظيمة ولا شيء.. ان كان للهندسة شأن فأنا ينتظرني كرسي الوزارة. قال ذلك بفخر ثم نزل في محطة الجامعة وهو يقول لربيع: أنا أركب الترام كل يوم في نفس الموعد من نفس المحطة.. كامب شيزار.

قال ربيع وهو يشير له مودعا: إلى اللقاء في نفس الموعد.. مع السلامة.

وهرع ربيع من فوره يزف خبر تعرفه إلى فتى البنسيون إلى رئيسه مؤنس أبو سبت وأحاطه علما بكل التفاصيل، لكن أهم ما لفت انتباه أبو سبت هو أن بثينة مهندسة كهرباء خاصة بعد أن ربط بين كونها مهندسة وبين مجلس تحضير الأرواح، واحتمال استخدام خبرتها في ادارة مسجل عليها سجلت روايات زوجها الراحل الكاتب المغمور حسن بركة، وبين شكوك الكثيرين حول امكانية تسجيل صوت الروح على مسجل، ودعوى الكثيرين بأن ذلك يتنافى مع العلم والدين. فإذا كانت أصوات الشياطين غير ممكنة التسجيل فربما كانت أصوات الأرواح أيضاً كذلك غير قابلة للتسجيل، ورأى في ذلك تناقضا لم يفارق ذهنه.. ولكنه قال لنفسه ان الفلسفة والميتافيزقا دائما تسبق العلم.. فلا غرو أن يبدو في الأمر غرابة لن يلبثا أن يتبددا. لكن ها هي الأفكار تتداعى في رأسه والشكوك تتزايد من جديد، لكنه قال لنفسه ثم لربيع بصوت عال:

- ليس ثمة ما يدعونا إلى العجلة خاصة بعد أن عرفنا الطريق إلى أشجار الحقيقة في مطوبس والابراهيمية وجليم وما علينا إلا أن نجلس تحت الأشجار وننتظر سقوط الثمار والأفكار فنتلقفها ونقدمها ساخنة وجبة شهية للقراء.. ولكن مرة أخرى يا ربيع.. أوصيك بالكتمان فالأمر صار

جدا لا هزلاً.. وعما قريب تنكشف حقائق وتنجلي أسرار.

قال ربيع: أنا لا أتحدث في هذا الموضوع مع أحد سواك.

ابتسم أبو سبت واستمر يتحدث بلهجة التحذير: موقفك حتى الآن ليس عليه غبار.. ولكن العبرة بالخواتيم وانس انك ابو العريف. إلا حين تمسك القلم وتكتب الأخبار لصحيفتنا.

هز ربيع رأسه وقال: اطمئن يا أستاذ.. ان الأسرار ستبقى طي الكتمان حتى تنزل معي إلى القبر.

ابتسم أبو سبت وقال: لا حتى تنزل على صفحات صحيفتنا أولا ولتذهب بعد ذلك إلى الجحيم.

وانصرف ربيع إلى جولة جديدة من جولات جمع المعلومات وتقصي الأسرار وشحذ ذهنه المتيقظ دائما بالأفكار، وهو دائما يستعجل الأيام من أجل كرسي رئاسة القسم الذي منّاه به أبو سبت إن أتم ضربته الصحفية ووعده ربيع ساعتها في حماس. «ان شاء الله سأصل إلى كبد الحقيقة» ونظر أبو سبت ساعتها لمن حوله وقال لهم «أفلح ان صدق».

فخرج ربيع وكله عزم وتصميم وثقة بالله وبنفسه تبلغ مبلغ اليقين، وشحذ زناد فكره واستجمع كل حواسه وما يدّعيه من فراسة في بحث دائب وسعي لا يكل وشوق

غامض لمعرفة الأسرار وخوض الأخطار والتقاط الثمار، فمتى تسقط عليه الأسرار وتنجلي له الحقائق ليتبوأ مركز الصدارة في أحد أقسام الصحيفة، ويوما ما سيصبح ممسكا بيده دفة السفينة كلها ويكون فيها بمثابة القبطان، وفي نهاية كل ليلة يهجع إلى فراشه مسترجعا نفس الحلم في نشوة مغنيا لنفسه يهدهدها للنوم بصوت شجي رنان حتى أوشك أن يتوهم أنه مطرب فنان. وتذكر مقولة ديكارت «أنا أفكر فأنا موجود» وقرر بينه وبين نفسه أن يغير المقولة فقال «أنا أحلم فأنا موجود» والحلم يقود إلى العلم كما تفضي الحرب إلى السلم وكما ينشق الظلام عن النور وكما تسلمنا الدنيا إلى الآخرة، وينتهي بنا الشك إلى اليقين، فمتى تظفر بالفرح يا قلبي الحزين، ليس قبل أن تجّد في اقتفاء الأثر فالحقائق لا ترى الا بحد البصر والسعي الدؤوب وكتمان السر حتى يقع الصيد في الشباك، فما عليك الآن إلا أن تحكم وضع الخطة وتجيد نصب الشرك. وما هي الا لحظات حتى أسلمته التأملات لسبات عميق ثم حلم بالنصر الوشيك فلم يتقلب في فراشه من فرط التعب حتى ظهرت أشعة شمس الصباح المتسربة من النافذة وانتشر الضجيج في الشارع وجلبة الباعة في السوق وأجبراه على أن يفيق.

- ١٢ -

لازمه كظله عدة أيام في غدوه ورواحه حتى صار رفعت الشامي في حالة من الرعب الدائم للالتفات كالسارق أو الأبله حتى اصطدم مصادفة بامرأة ظنت أنه عمد إلى الاحتكاك بها وخامرها أنه لفـرط تبرجهـا وزينتهـا ظـن بها ظـن السـوء فتمنطقت بملاءتها وأسمعته موشحا مـن الشتـائـم والألفـاظ المنتقاة في مثل هذه المناسبات. وأدانه ارتباكه رغم براءته، فتمادت المرأة في السباب وتجمع المارة وجاء شرطي يستطلع الأمر فازداد ارتباك رفعت وحاول استرضاء المرأة في خنوع وذلة جعلاها توقن من عمده إلى معـاكستهـا في الـطـريـق بارتطامه بها ذلك الارتطام الشديد وقال هو بصوت واهن: والله لم أقصد يا مدام. انني رجل ريفي لا يعرف المعاكسات.

سأله الشرطي: من أين

ـ من مطوبس .

والتفت إلى المرأة مرة أخرى وقال في توسل : وأنا آسف يا مدام .

علا صوتها قائلة : قلها في القسم .

وعند ذلك الحد قال الشرطي : أرني بطاقتك الشخصية .

فأبرزها في ارتباك وتأمل الشرطي بطاقته وقال وهو يقرأ منها : فعلا رفعت احمد الشامي .. من مطوبس .. ومن الأعيان .. يعني رجل محترم .

وانتهز رفعت الفرصة لمحاولة إزالة سوء الفهم فقال : ومع ذلك أنا آسف يا مدام والعتب على النظر .

وأوشك الشرطي أن يصرفه لولا تدخل ربيع الذي اندس في الزحام قائلا : أنا من مطوبس .. وهي بلد في حجم العلبة .. كلنا نعرف بعضنا .. ولم يحدث أن رأيت هذا الشخص ولا سمعت بعائلة لها لقب الشامي . خذهم على القسم يا شاويش .

ـ القسم .

قالها رفعت الشامي بصوت واهن ضعيف وأوشكت روحه أن تخرج ، وأوشكت ساقاه أن تتهاويا لكنه تمالك نفسه واستجمع ارادته وأزاح الجمع بكلتا يديه وأطلق ساقيه للريح تاركا بطاقته في يد الشرطي والرجال والشباب

والأطفال يجرون في اثره صائحين «حرامي.. حرامي». بينما انطلقت صفارة الشرطي بقوة وكأن هناك تجربة غارة جوية، لكن رفعت الشامي اختفى بلمح البصر في الأزقة والحواري ولم يعثر له على أثر، لكنه لم يستطع الرجوع إلى البنسيون فثمة من يعرف طريقه من أهل السلطة الرابعة، وليس ببعيد اذا رجع إلى البنسيون أن يقود ربيع ممثل السلطة الرابعة ذلك الشرطي وغيره من رجال السلطة التنفيذية إلى مخبئه. «فأين تذهب يا رفعت، قضي عليك بالتشرد فأين تذهب؟ إلى مطوبس التي لا تعرف أحدًا فيها، أم إلى بثينة التي قضى عليك ألا تراها بعد الآن الا في الخفاء ولا سبيل إلى ذلك من اليوم».

وحادثها تلفونيا وهمس لها بالحكاية وسألها المساعدة ومحاولة امداده بالنقود لكنها أصابها الخوار في قواها وسقطت السماعة من يدها وانخرطت في بكاء مر، وحين سألها ولداها سبب بكائها لم تدر ما تقول فقط احتضنتهما واستمرت في النحيب والولدان يلحان في السؤال عن السبب ولكنها لا تسمع ولا تجيب، هي في دنيا أخرى تفكر فيما يمكن أن يكون في انتظارها في المستقبل القريب.. لكنها بدت في ذهولها عاجزة عن التفكير والتدبير فالأمر صار جد خطير.

- ١٣ -

أبلغ الشرطي بالحادث وسلّم بطاقة رفعت لقسم الشرطة، وتطوع ربيع بوصفه صحفيا لمساعدة رجال الشرطة، واستأذن الضابط في تصوير بطاقة رفعت الهارب، ثم هرع من فوره، إلى مكتب مؤنس أبو سبت ليضع بطاقة رفعت على مكتبه وإلى جوارها صورة لحسن بركة استخرجها من الأرشيف وراح يتأمل الصورتين وبحاسة مخبر صحفي وبدقة في الملاحظة وحدة في البصر قال لمؤنس: أستاذ مؤنس.. أنظر معي قليلا للصورتين.

نظر مؤنس.. حد البصر.. قطب ثم عبس.. ثم انفجر قائلا: ماذا تريد أن تقول؟

ـ لا أريد أن أقول شيئا.. لكن الصورتين تقولان الكثير.

ـ ماذا تقولان يا أبا العريف؟

قال ربيع بأستاذية: اذا وضعنا على هذه الصلعة شعرا مستعارًا، ألا تصبح الصورتان صورة واحدة؟

انتبه مؤنس وقال في دهشة: ماذا؟

كرر ربيع كلامه ثم سكت فقال رئيس التحرير مؤمنا على كلامه: معقول.. نفس الملامح في الصورتين.. وهذه صورة رفعت الشامي وتلك صورة المرحوم حسن بركة وكلاهما زوج لبثينة عبد الباسط.

وسوَّى ربيع هندامه وجلس باعتداد فصرخ فيه مؤنس.. «قم.. ان العمل يبدأ الآن هيا معي إلى مديرية الأمن».

- ١٤ -

في مديرية الأمن التقيا بالمسئولين وعرضا عليهم الصورتين. وبعد مراجعة الواقعة الأخيرة الخاصة برفعت الشامي ومحضر المعاكسة في الطريق العام، وكذلك بعد التحقق من الشبه الشديد بين صورتي الكاتب المغمور حسن بركة والمدعو رفعت أحمد الشامي، وبعد إجراء التحريات والوصول إلى أن كليهما زوج السيدة بثينة عبد الباسط، قام الضابط المسئول بفتح ملف حسن بركة رسميا من جديد بعد استئذان النيابة وضم ملف المدعو رفعت الشامي إليه، ووضعت الخطة للقبض على شخص الفاعل في كلا القضيتين.

انقطعت الصلة بين بثينة ورفعت بعد أن اشتدت المراقبة

عليها، وحذرت بثينة رفعت من احتمال أن يكون التليفون مراقبا بشكل رسمي، وكف رفعت وبثينة عن الاتصال عسى أن تهدأ الأحوال، واكتفت بثينة باسقاط خطابات بها أوراق نقدية في صندوق بالمخبأ الذي يختبىء فيه بعيدا عن الأعين. ورغم ذلك كانت ترتعد من الخوف حتى أن المدة بين كل اتصال وآخر تباعدت، فشحت النقود في يده انما لم يأبه بنقص النقود، لكنه بعد أن طالت المدة بين كل اتصال وآخر وتحت ضغط الحاجة المادية والأزمة الروحية الأبدية عاودته الوساوس والقلق على حبه. فقرر أن يخرج من مخبأه ويحوم في المدينة.

التقى الصحفي ربيع مصادفة بمطرب الاسكندرية سامح وهو يصّف سيارته إلى جوار الطوار فعاتبه على هجر الاسكندرية إلى القاهرة ورد عليه سامح قائلا: قال تعالى: ﴿واسعوا في مناكبها﴾.

ثم سكت لحظة ثم قال: وهنا مصر.. وهناك مصر.

ثم عاتبه ربيع قائلا: وماذا عن الوفاء لعائلة صديقك حسن بركة.. ألا تزورهم؟

فرد سامح في أصالة هي طابعه: وجبت الزيارة.

وبعد سيل من كلمات الترحيب به في الأسكندرية

والسؤال عن أغانيه الجديدة.. وسؤال خاص.. هل يغنّي للأسكندرية مسقط رأسه وسبب شهرته وقبلته في كل مكان؟ أومأ برأسه دلالة الترحيب وصدق النية. انصرف، لكن ربيع لم ينصرف فتابعه بعد أن ألقى له الطعم. الوفاء والدعوة لزيارة أسرة صديقه حسن بركة فقصر فترة زيارته للاسكندرية على التردد على بيت صديقه المرحوم حسن بركة. فرحت بثينة وكذلك الولدان وكذلك فرح هو بأن أخرجهم من انطواء وعزلة لم يشهدهم في مثلها من قبل. فحين سأل بثينة عن الأحوال لم تقل له سوى: وحيدين.. وقد أقفلت علي بابي.

وسارع هو إلى دعوتهم للخروج من هذه العزلة بطريقته المرحة فهلل الولدان وتمنعت بثينة. فتوسل إليها الولدان ومعهما سامح بطريقته التي ينشرح لها القلب وينفتح. فاستجابت على مضض وقالت في نفسها «لتكن مرة أولى وأخيرة». ولكنها كانت نزهة لها ما بعدها من نزهات. تابعها ربيع بالكاميرا ذات العدسة الزووم من بعيد فسجل بعدسته لحظات بريئة للمطرب سامح وبثينة والولدين ونشرها مع موضوع مشوق وكلمات كأنها غمزات لم تمر على القراء دون توقف، وسرت الاشاعات في المجتمع المخملي ومنه إلى كل أرجاء المعمورة. ويومها استيقظ الأسد

الذي خرج من عرينه ليجد الخبر في كل مكان في الصحف وعلى لسان الناس في الاتوبيس وفي الحدائق العامة.

فقصد من فوره إلى حيث تقيم بثينة ـ بلع الطعم وعانى صراع السقوط في الشباك من الصباح إلى المساء بل حتى جنوح الظلام وانتصاف الليل، فاندفع إلى محل اقامة بثينة وقد جن جنونه ـ طرق الباب بشدة واستيقظت بثينة في خوف وفتحت وهتفت: حسن

قال: نعم حسن الذي تخونينه، لقد قرأت كل ما نشر في الصحف، وسمعت كل ما يقوله الناس. وضعت يدها على فمه وهي تقول: اخفض صوتك ولا تكن مجنونا.. وانصرف حالا حتى لا تقع في الشرك.

ـ شرك.. لم تعد تنطلي عليَّ هذه الألاعيب.. لن أنصرف.

واستيقظ الولدان على صراخه. استيقظ الصغير أولا وعرف أنه أباه وكان كما قالت أمه على سفر ثم عاد فارتمى في أحضانه، أما الكبير الذي كان قد تسللت إلى ذهنه الخرافات التي سمعها من الأولاد، وكان قد وعى ظروف اختفاء أبيه لذا صدم لمرآه وشت العقل منه وتاه.. صرخ: عفريت بابا..

ثم ارتمى على الأرض وراح في اغماءة، وارتبك حسن وبثينة في محاولة افاقته دون ضجة، وانقضّ رجال الشرطة عليهما، ولم يحل انشغال الشرطة بأداء الواجب دون القيام بما يجب نحو الطفل الذي أفاق من ذهول إلى ذهول. فالشرطة في بيتهم وها هو أبوه وأمه والأصفاد في أيديهم، وتوسل الطفلان إلى رجال الشرطة أن يصحبوهما مع والديهما.. وكان لهما ما أرادا، فركبا احدى سيارات الأجرة ولحقا بهما في قسم الشرطة حيث جلسا في حجرة جانبية يبكيان في ذهول، فهما لا يفطنان إلى شيء مما يحدث.

- ١٥ -

فتح التحقيق مع حسن بركة الذي ثبت أنه رفعت أحمد الشامي وذلك بمضاهاة بصمة بطاقة رفعت الشخصية ببصمة حسن في مصلحة تحقيق الشخصية، وقال هو أنه وجد البطاقة في جيبه وأنه لا يعرف منها شيئا كل ما يعرفه أنه فقد ذاكرته فترة وعرف من خلال البطاقة التي دست في جيبه أنه رفعت أحمد الشامي، واختلط عليه الأمر وتصرف على أساس ما هو موجود، حتى وجد نفسه في هذا الموقف الصعب وعلّل وجود بطاقة باسم رفعت في جيبه بأنه ربما استخرجها له أحد العطوفين في فترة فقدان ذاكرته حتى يجنبه مشاكل اشتباه الشرطة فيه، وبالاتصال بسجل مدني مطوبس ثبت أن البطاقة مزورة مع أن توقيع رئيس السجل المدني صحيح، وقبض على رئيس السجل المدني وهو رجل

ريفي ساذج قال: «إنه حين رآه هائما على وجهه في مطوبس ظنه من أهل الحظوة فقد كان سمح المحيا ومسترسل اللحية مهوش الشعر.. مسالما، ورغب أن يكون له عنده حظوة حتى تحل عليه بركاته، فقرر أن يعطيه بطاقة شخصية مثلما يعطيه هذا جلبابا وذاك لقمة».

قرر أن يجنب هذا الدرويش الهائم على وجهه مشاكل اعتراض رجال الشرطة لـه، وأكـد ذلـك فقـدان حسـن لذاكرته لكن ذلك لم يبدد الشكوك حوله مطلقا، فلم تبرأ ساحته ولكن أفرج عن زوجته فهي معفاة من الشهادة ضد زوجها حتى لو كانت تعلم جرمه بحكم الصلة الشرعية به وقدسيتها بواقعة التزوير. فخرجت لرعاية ولديها، أما حسن فظل مودعا بالسجن، وأمام النيابة في اليوم التالي كرَّر نفس الأقوال كما كرر أنه لا يذكر شيئا مما حدث وهو يسبح في البحر ولم يدر شيئا منذ ذلك الحين حتى واقعة اصطدامه بالمرأة في الطريق والضجة التي أثارها الناس من حوله والمطاردة له التي بدا بعدها وكأنه يستيقظ من حلم لا يذكر شيئا منه هو الآخر. وحين سأله وكيل النائب العام كيف يبرر استمرار الصلة بينه وبين زوجته قال: «إنه في هذه الفترة التي تزوج فيها زوجته باسم رفعت ربما كان عقله في هذه الفترة منطقة كالتي بين الحلم واليقظة»، ولما

سئلت زوجته قالت: «أنها ظنته هاربا ولم يدر بخلدها أنه فاقد للذاكرة». ولما فاجأها المحقق بسؤالها: «لما لم تبلغي السلطات بعودته ما دمت تعتقدين أنه مسئول غير فاقد للذاكرة؟»

قالت: واجبي كزوجة منعني، وأعتقد أن القانون يعفيني من الشهادة.

قال المحقق: بِمَ تبررين زواجك الثاني به؟

ـ بدا الأمر كأنه مزاح.. زوجي يريد أن يتزوجني فتزوجته وساعتها كانت تساورني الشكوك في حالته الصحية.

اعترضها المحقق قائلا: بل تزوجته بعد الضجة التي حدثت في البنسيون وكان اسمه ساعتها رفعت.. وهذه جريمة زنا.

ـ ليس في الأمر زنا.. تزوجت زوجي.. وحتى لو لم يكن زوجي فقد تزوجته بعد استخراج شهادة بانقضاء الفترة القانونية على غياب حسن بركة.

واتهمت زوجة حسن بركة بثينة بتهمة البلاغ الكاذب عن غرق حسن بركة والاشتراك في ازعاج السلطات وتضليل السلطة الرابعة وهي الصحافة وكذلك الرأي العام،

وشغله بخرافات مثل تحضير روح حسن بركة واملاء روايات من العالم الآخر وهذا الأخير يدخل في نطاق تهمة النصب، لكنها قالت: «إن الروايات مسجلة على شرائط من قبل اختفائه وأنها لم تكن تتكسب من تحضير الأرواح، وأن الأمر تسلية كقراءة الكف والفنجان وما شابه ذلك، وأنهما لم يقدما بلاغا للسلطات عن اختفائه وبالتالي لم يزعجا السلطات. وقررا أن الصحافة مسئولة عن مبالغاتها وعن تحري الحقائق قبل النشر»، وبدت التهم جافة واهية متهالكة كأوراق الأشجار في الخريف والا فهي كفيلة بتشريد ولديها.

لكنه لم يجد مناصا من مواجهة الاتهامات، وبعد أن صدر قرار الاتهام ونشر في الصحف المختلفة جاء سامح لزيارة حسن في السجن كما جاء أصدقاء كثيرون. وتطوع أكثر من محام للدفاع عنه مجانا ربما طلبا للشهرة»، فقضيته منذ بدايتها قضية رأي عام. وكان يرفض قائلا: «إنه لا أحد أقدر منه على الدفاع عن نفسه» وعندما شرح له أحد المحامين أنه لو لم يختر محاميا فستعين له المحكمة محاميا فالأحسن أن يختار هو. فاختار محدثه الذي كتب اقرارًا بتطوعه للدفاع مجانا عنه. أما بثينة فقد برئت ساحتها وأفرج عنها من سراي النيابة لترعى ولديها على أن تمثل

امام المحكمة لا كمتهمة بل لاستيضاح بعض النقـاط منهـا ، كل ذلك والصحف تنشر في اصرار ما يدين حسن بركة وزوجته أمام الرأي العام بعد أن كانت قبل ذلك تعطف عليهما وعلى ولديهما.. قبل اكتشاف وجود حسن على قيد الحياة.

فبدت الصحف كالأيام وقد قلبت لهما ظهر المجن! فيا لتقلب الأيام والأمواج والطقس والصحافة والرأي العام بالتأثر ضج من جديد مطالبا بمعاقبة حسن بركة وكذا زوجته. فرغم تبرئة النيابة لها اتهمتها الصحف بالتلاعب بها وظل ذلك هو الطابع الرئيسي لما يكتب في الصحف الذي يؤثر بدوره على الشعور العام بين الناس حتى كان يوم المحاكمة.

- ١٦ -

قاعة المحكمة تغص بالحاضرين، وفي الخارج تجمهر كثيرون ممن عجزت عن استيعابهم القاعة، وتومض بين لحظة واخرى أضواء كاميرات التصوير الخاصة بالصحفيين التي اختلطت بأضواء كاميرات الفيديو الخاصة بمحطات التلفزيون، وفشلت كل الوسائل في الحصول على تصريحات من حسن بركة قبل بدء المحاكمة عما سيكون موقفه أثناء المحاكمة، كأنما قاطع وسائل الاعلام والنشر كما قاطعته في بداية حياته الأدبية، ودللته بعد موته المزعوم وأدانته بعد عودة ظهوره على قيد الحياة، وكأنهم يريدونه ميتا وليس حيا، فهو ميت في حياته وحي في مماته، أو هو كالفراش وقد أحب النور فلا بد أن يحترق.. أما إذا آثر السلامة فلا بد أن يلوذ بالاختفاء في الظلام، ولكن أنى للفراش أن

يزهد في النور فهو كالميت لا يراه ولا يشعر بوجوده أحد.

وبدأت المحاكمة ومثل حسن أمام القضاء، وبدأ محاميه مرافعته القانونية ورغم قوة أسانيده القانونية خاصة بعد أن قرر الأطباء أنهم لا يستطيعون تقرير حالة حسن بركة في فترة فقدانه للذاكرة التي قال عنها، لأنها انقضت قبل عرضه عليهم. كانت مرافعته مفيدة لكنها افتقدت الطرافة التي جاء جمهور الحاضرين من أجلها، فهم لم يجيئوا للاستمتاع بالحجج القانونية وانما جاءوا للاستمتاع بشيء آخر.. ربما كانت مشاهدة الأسد في القفص لا في عرينه، مشاهدته حزينا كما لا بد أن يكون وهو في الأسر، فهل يجرؤون على رؤيته في الغابة مطلق السراح؟

لكن حسن بركة تخلص من مرارة الاحساس بالأسر وانطلق يصول ويجول بلسانه بعد أن انتهت مرافعة المحامي. قدم نفسه بهدوء رغم أنه لم يكن بحاجة إلى تعريف: حسن بركة. كاتب مغمور شاء قدره أن يموت حيا ويحيا ميتا، قاطعتني الصحف دون عمد منها، ولكن لأن معظم المحررين مصابون بالنرجسية ويحبون الالحاح والتردد عليهم صباح مساء، ويزهدون في مقابلة الرجال ويؤثرون مقابلة الصبايا الملاح اللاتي يصلحن لصور الغلاف، ومع أن حب

الجمال ليس عليه خلاف إلا أن ما كنت أكتبه كان له جماله الذي اعترفت به الصحف بعد حادثة اختفائي في البحر. وكذلك أرى أن تجاهل النقاد للكتابات والكتب القليلة التي أصدرتها بدا لي أنه مؤامرة صمت ولذلك بدت كتاباتي وكأنها ولدت لتشيع في جنازة صامتة أو لتدفن على السكت مثل شيخ هرم، فهي لا تنشر في الصحف والمجلات التي صارت كلها أو معظمها مساحات مسجلة بأسماء أصحابها، وحتى الصفحات التي تبدو مفتوحة للكتابة من الخارج هيمن عليها مشرفون عندهم قناعة، بأنهم يمسكون بمفاتيح الجنة في أيديهم، بينما بدا لي بعضهم مثل كلب يمسك بقطعة من العظم وهكذا كان قدر كتاباتي الموت... الغرق في بحر من الصمت وكان موقف النقاد حجرا ثقيلا علقوه في رقبتي وألقوا بي في بحر راكد ميت أصم أبكم كالصمت وكأني كلب متشرد. وهنا ضج الحاضرون الذين كانت تغص بهم القاعة واستوضحه رئيس المحكمة قائلا: هل معنى هذا أنك توجهت إلى البحر صباح يوم اختفائك بقصد الانتحار.. أو قل الاختفاء؟

أشار حسن بركة بحركة من يده تحمل امارات الزعامة قائلا: سأقول كل شيء.. خرجت يشدني غضب لا أدري مداه.. وسلاسل مشدودة إلى قاع البحر مثقلة بحجر كبير

بحجم تجاهل النقاد.. بحجم مؤامرة الصمت ورأيت جمال الفتاة الجالسة إلى جواري.. ورأيت فيه طوق النجاة.. ولأنه لا مجال للقلم على رمال الشاطئ رأيت أن أبهرها بقدرتي على السباحة وأن أقهرها وأبدد نضرة جمالها باختفائي واصابتها بالهلع فلا تصلح فتاة غلاف.

وهنا ومضت أضواء كاميرات التصوير والفيديو متجهة نحو الفتاة التي كانت تحرس ملابسه على الشاطئ يوم اختفائه وأتت اليوم لحضور المحاكمة، والتفتت نحوها بثينة وتأملتها بنظرة امرأة لامرأة.

واستمر حسن بركة يحكي حكايته فقال: وفي البحر حين أوغلت في عمق البحر المتلاطم الأمواج وجدت نفسي في صراع غير متكافىء مع الأمواج لم أكن متهيأ له، بحجم الصراع الداخلي في نفسي بين الرغبة في الموت والرغبة في الحياة، وبحجم الصراع الذي كان قبل النزول إلى البحر الصراع بين الاستمرار في محاولات النشر من أجل النجاح وبين الاستسلام للهزيمة والنسيان اللذين يشبهان بالنسبة لي السقوط في بحر الظلمات ذلك المجهول، فالنجاح صنو الحياة والموت صنو الهزيمة والنسيان، وتجسد الصراع في نفسي بين ارادة الحياة وبين اليأس منها والاستسلام للخطر الداهم بين الأمواج، تجسد كل ذلك في قوة ضربات ذراعي في فترات

وخوار **قواي هنيهات، أستسلم فيها للأمواج** التي كانت تتأجج بين مد وجزر.. ويبدو أن الأمواج ألقت بي على شاطئ مجهول فقوة الصراع أجهزت على شيء فيَّ لعله الذاكرة..

ولم أفق الا على مطاردة الناس لي في موجات بشرية كموجات البحر يوم ارتطمت بتلك الغانية يوم جدّت في اثري الشرطة. ربما كنت أمر بفترات أعيش فيها على هامش الذاكرة فأطوف حول بيتي القديم دون وعي وأحادث زوجتي على أنها حبيبتي الجديدة الوحيدة، وربما أذكر أشياء كالبطاقة التي وجدتموها معي تحمل اسم الشامي.. ولقائي بزوجتي المتكرر في منطقة الحلم بسوق شادية بالابراهيمية ومطارحتها الغرام في بنسيون جليم دون وعي مني أنها زوجتي، لكنها كانت لا شك تعي وتحاول أن توقظ فيَّ أشياء لعلها تنشط ذاكرتي التي فقدت أهم ما في حياتي أولادي.. التي كنت أظنهم أولادها فقط لذلك أخذت زياراتي لها طابع الخفاء حتى لا يكتشفني أولادها.

أما سامح فكان احساسي نحوه احساس عاشق غريم لي يريد أن يخطف حبا هو حقي، والأخبار التي كانت تنشر للايقاع بي لم أكن أجد فيها أكثر من وشاية لي بخيانتها فيها

من الشر **الشيء الكثير، وغرقت في هذا الخضم** الكبير، ثم كان فخ الغانية الحقير والمطاردات التي كنت أحسها كلسع السياط.. حرامي.. حرامي.. التي وان تكن قد أرهقتني الا أنها أيقظتني من سبات عميق رحت فيه.. فنشطت ذاكرتي في هذا اللهاث المحموم بالرغبة في الهرب.. دائما هارب من لا شيء إلى لا شيء حتى وجدت نفسي فجأة أذكر رقم هاتفي واسمي وعنواني وولدي، ولكن زوجتي عاملتني على انني لا زلت فاقد الذاكرة حتى كان الكمين حين قررت أن أعود إلى بيتي وزوجتي وولدي بكامل وعي وان كان بدافع الخبر المسموم بدوافع الغيرة من المطرب سامح حين قررت أن أعود جئتم لأخذي.. محكوم علينا بالفرقة.. محكوم على عمرنا بالسرقة رغم أننا عشنا عمرنا نسير على الطوار ومع ذلك ها نحن مطاردون نحلم بالفرار ولكن كيف وفي يدي هاتين هذا السوار، فلا مناص من الخضوع والامتثال لكم وقد أصبح بيدكم الحكم والقرار، تغوص روحي في جسدي.. تحلم بطوق النجاة الذي يعيدها من جديد إلى قلب الحياة ولسان حالي يقول لا تيأس فقد نجا احد اللصين ولا تتجبر فقد حلت اللعنة بأحدهما.. فقد قال يوسف: ﴿ **يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فيأكل الطير من رأسه. قضي الأمر الذي فيه تستفتيان** ﴾.

- ١٧ -

انتهت المرافعة التي طغت فيها بلاغة حسن بركة على دفاع محاميه، وألقت بالكرة في مرمى أجهزة الثقافة والصحافة والاعلام بعد أن كانت تحاول ادخالها في مرماه أو هكذا بدا الأمر في نظر جمهور الحاضرين، فحوّل القضية من تهمة تزوير وبلاغ وازعاج للسلطات والرأي العام وتضليل السلطة الرابعة وهي الصحافة، حوّلها حسن بركة إلى قضية من طراز آخر.. قضية تخص الثقافة وتمس الاعلام وتهم الرأي العام مثلما تهم حسن بركة سواء بسواء.. حين دخل حسن بركة القاعة لزم الصمت في مكانه وقد وقف بجوار القفص، وذلك لزم الحاضرون الصمت، والجميع بأبصارهم إلى منصة القضاء شاخصون.

فجأة دخلت هيئة المحكمة وامارات الجد مرتسمة على وجوههم. انتابت حسن بركة في هذه اللحظة مشاعر شتى من الغضب والخوف والرهبة من المجهول الذي ينتظره، وكذلك اعتراه شعور بالسخط ورفض انتظار وقوع البلاء وفي حمأة نزوعه نحو إزاحة المسئولية عن كاهله وكأنها صخرة ينوء بحملها، فجأة قرر أن يلقى بالصخرة على الحضور جميعا، ألقاها ولاذ بالفرار من باب جانبي وجرى لا يلوي على شيء بينما تطارده صفارات الشرطة، لكن أحدا من الحضور لم يتحرك ولا أحد من المارة صاح كما هي العادة «حرامي.. حرامي».. زاغ في طرقات المدينة الرحبة، لم يسترح حتى وصل إلى طرف قصي من شواطئ الاسكندرية.

استقل قاربا وأبحر بعد أن دفع الأجرة مستخدما مجدافين، أوغل في عمق البحر حيث يبدو الأفق منطبقا على اليابس والماء. اخترقه وغاب في الظلام كمن يحاول الهروب من سجن إلى سجن، كمن يستجير من الرمضاء بالنار. اختفى حسن بركة مخلفا وراءه القارب الذي كان يستقله والذي أعيد إلى صاحبه الذي كان يندب طوال ساعات حظه العاثر وهذا الزبون المجنون.

صدر حكم ببراءة حسن بركة فكان ادانة لآخرين،

ولكن أين حسن بركة؟ رددت الصحف السؤال ورجّعه الصدى. قال كاتب في حماس أجوف ربما هرب إلى الشمال، وقد يعود بوجه جديد واسم جديد كما عاد من قبل باسم الشامي، وربما غرق هذه المرة عندما حاول أن يعيد الكرة وربما أبحر في قلب الظلام مع كونراد أو راح يصارع «موبي ديك» حوت «ميلفل الأبيض»، وربما ابتلعه حوت آخر يسبح في بطن الحوت مثل يونس.. يقول ﴿لا إلـه الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين﴾، فاضرعوا معـي إلى الله عسى أن يكون من الناجين، فنحن لسنا بمنأى عنه.. ولنراجع مواقفنا حتى لا تتبرأ منا الأجيال القادمة.. حتى لا نقف أمامهم موقف المتهمين، حتى لا نسقط في بحر لجي لا نجاة منه، فالبحر كالتيه اما أن نغرق فيه أو نظل نعدو في لياليه حتى يصيبنا الهمود.

انتهت بثينة وولداها من قراءة الصحيفة فوضعوها جانبا وظلوا ساهرين باكيين حتى غلبهم النوم، وقد شقت الدموع لها طريقا لا ينتهي من عيونهم عبر خدودهم إلى قلوب الناس على مر الأجيال.